ضرب المرأة

سؤال: كيف تفهمون توصية الرسول ﷺ بضرب النساء؟

الجواب: لم ترد من الرسول ﷺ توصيةً بضرب النساء. فالكل يعلم ما قاله في حجة الوداع. ولكن السؤال متعلق بما ورد في آية ﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤). وهذه الآية توصي الرجال بما يأتي:

أولًا: أول ما يفعله الرجال تجاه النساء الناشزات الخارجات عن الطاعة والمتصرفات بخشونة ورعونة هو القيام بنصحهن. ما دام النساء يعشن معكم ويقمن بإنجاز ما تريدونه منهن، ويُدِمْن نسلكم، إذًا عليكم أن تكونوا مرشدين لهن. تقومون بإزجاء النصح لهن ومحاولة الارتفاع بهن إلى المستوى الإنساني اللائق بهن. قد يكون فيهن بعض الضعف وبعض الميول التي لا تعجبكم، عند ذلك عليكم أن تساعدوهن وتوضحوا لهن طريق الاستقامة. قد يحاولن استعمال فِتْنتهن، ولكن وظيفتكم الأولى هي إيصالهن إلى مستوى الشعور برقابة الله تعالى. وهذا هو باختصار معنى ﴿**فعِظوهنّ**﴾.

ثانيًا: إنّ غُرف النوم هي الأماكن التي قد تستغلّها المرأة لإحكام نفوذها وسيطرتها على الرجل. فإن وُفّقت المرأة ووصلت إلى بُغيتها هذه في غرفة النوم، واستعبدت الرجل فيها، لم يستطع ذلك الرجل تَوقّعَ

أي طاعة أو استجابة منها في الأمور الأخرى. فإن استطاع الرجل استعمال إرادته وعدم الاستسلام والإذعان في هذه الساحة التي تعد ساحتها وعدم الوقوع في قبضتها هناك، سهُل عليه قيادة المرأة من الناحية النفسية. ولكن عليه أن يفعل ذلك دون تجاوز حدود الأدب، وفي ظل من الكتمان، بحيث لا يشعر به أحد في البيت أو في خارجه. وهذا أمر حسّاس، لذا يجب عدم سلوك طريق الإفراط أو التفريط، بل المحافظة دائمًا على التوازن حتى يمكن الوصول إلى نتيجة مرضية من كلا الطرفَين.

ويجب على الرجل ألَّا يترك غرفة النوم، وألا ينام في فراش آخر، بل يكتفي بإدارة ظهره لها حيث تتجلى هناك درايته في استعمال إرادته. وهكذا يستعمل الرجل سلاحها نفسه تجاهها ويغلبها به ولا يدَع لها فرصة استغلال سلاحها. وتجاه مظاهر أنانيتها تظهر شخصيته ويقول "أنا لن أذوب أمامكِ".

غير أننا يجب أن نذكّر هنا بأن الآيات عندما تذكر هذه الخطوات تذكرها ضمن ترتيب وتسلسل معيّن. ومع أن أبا حنيفة يرى أن "الواو" هو للجمع المطلق إلا أن الجمهور يرى أن هذا الحرف يفيد التتابع والترتيب، أي يجب أن يتم النصح أولًا، فإن لم يُفِد النُصحُ شيئًا هجَرها في المضجع. فهذا هو ما نفهمه من ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

ثالثًا: قد لا يفيد كل ما جاء أعلاه، بل تستمر المرأة في نشوزها وعنادها، وهنا أي في المرحلة الثالثة يعطى للرجل حق ضرب المرأة، ولكن ضمن تحديدات معيّنة، إذ لا يجوز أن يسبب الضرب أي أذى كبير للمرأة، وهذا هو مفهوم ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

إذًا يجب أن ننظر إلى الموضوع آخذين بنظر الاعتبار هذه المراحل أو الخطوات الثلاث. وإنّ إهمالها وتركيز النظر على الضرب فقط

-سواء تأييدًا أو معارضةً له- أمر بعيد عن التوازن، لأن الضرب ليس أساسًا وقاعدةً مقررة. فقد قال رسول الله ﷺ: "**لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ**" فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذَئِرْنَ النساء على أزواجهن. فرخّص في ضربهن. وبعد مدة امتلأ بيت الرسول ﷺ بالنساء الشاكيات من ضرب أزواجهن، وقامت زوجات الرسول ﷺ الطاهرات بإخباره بالأمر، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وجمع الصحابة وقال ﷺ: "**لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ**"(٤٠).

وهكذا حسم الموضوع، أي عندما أعطى الرخصة في البداية مهّد الطريق للشكوى، وعندما جاءته الشكاوى منَع الضرب. فهناك أحاديث كثيرة حول عدم الضرب تفصل ما أجملته الآية. فمثلًا: انتقد الرسول ﷺ تصرف الرجال الذين يضربون نساءهم ثم يقعون عليهن في الليل كالبهائم فقال ﷺ: "**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ**"(٤١). كأن رسول الله ﷺ يقول: "أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبدَ؟! يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره".

إن الضرب هو العلاج الأخير وعندما لا يبقى هناك طريق آخر، أي عندما لا تفيد الخطوة الأولى ولا الثانية. فهو علاج استثنائي ولا يطبَّق إلا على من كانت فطرتها وطباعها لا تستقيم إلا بالضرب. ويجب ألا يكون الضرب مؤذيًا أذًى بالغًا لها، لأن الرسول ﷺ يقول: "**إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَّقِ الْوَجْهَ**"(٤٢). الوجه أفضل مرآة لتمثيل رحمانية الله تعالى، ففيه ملامح تمثل هذا المعنى، لذا يجب عدم الضرب على الوجه. والحقيقة أن الغاية من الضرب هي إثارة كبريائها وكرامتها وتحريكهما.

(٤٠) أبو داود: النكاح، ٤٣.

(٤١) البخاري: تفسير سورة الشّمس، ١.

(٤٢) أبو داود: الحدود، ٤٠.

لذا يجب استعمال أصغر ما يمكن استعماله لهذا الغرَض. لا أزال أذكر الآن-على رغم سنين طويلة مضت- كيف أمسكت معلمة الابتدائية بأذني قائلةً: "وأنت كذلك؟!"، كلما تذكرت هذا المشهد تذكرت تلك النصيحة والأثر النفسي الذي تركه هذا التنبيه في ضميري.

قلنا إن الضرب هو آخر طريقة للعلاج يُستعان به في إصلاح المرأة، وأنه يجب ألا يؤذيها. وهنا علينا أن نذكر أن الرجال سيكونون مسؤولين أمام الله إن قاموا بالضرب المبرح أو استعملوا الضرب في غير نية الإصلاح.

فكما نستعمل سبيل النصيحة لها ونأمل أن نصلحها ونقومها بالنصيحة والكلام الجميل، وكما نستعمل أسلوب الهجر في الفراش دون أن نجرح كرامتها بل نفكر فقط في إصلاحها، كذلك إن كان الضرب الخفيف يؤدي إلى صلاحها استعملناه. ولكن ليس معنى هذا أن نقوم بضربها كما يُضرب الحيوان إن عصَتْ أو نشزتْ، فهذا أسلوب فظ وجاهليّ ولا هدَف له، وهو يضع الإنسان أمام مسؤولية كبيرة بين يدي الله تعالى. وهذا شيء وارد بالنسبة لجميع أشكال التربية. فالمعلم ليس له ضرب تلميذه خارج إطار التأديب والإصلاح، وإلا كان مسؤولًا.

والآن أتساءل، بأي عقل وبأي منطق يمكن أن نعارض الضرب الذي يأتي في المرحلة الأخيرة وبعد تجربة جميع وسائل النصح والإرشاد والهجر وفشلها؟ ولنفرض أن الضرب أدى إلى صلاح امرأة واحدة من بين كل مائة امرأة، فلماذا يقوم الدين الإسلامي بسد الطريق أمام هذا الإصلاح؟ فهذه طريقة للتربية والإصلاح. وعندما أذن الرسول ﷺ بالضرب أذن في ضمن هذا الإطار، وعندما منع الضرب كان يمنع الضرب المبرح والقاسي، ويحفظ المرأة من مشاعر الحقد والانتقام.

وقد يخطر على البال في هذا الخصوص سؤال: إذا كان يحق للرجل ضرب المرأة الناشزة المعاندة، فلماذا لا يحق للمرأة ضرب الرجل الناشز والمعاند؟

يقول الله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤) ومناط القوامة: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٤). فالرجل يفضُل المرأة في نواح عديدة. ولكن يجب تقييم هذا التفاضل والنظر إليه كالتفاضل الموجود بين أعضاء الجسم الواحد. فإذا كان الرجل مثلًا في موقع العين، كانت المرأة في موقع الأذن. وإذا كان الرجل في مرتبة الدماغ، كانت المرأة في مرتبة القلب، أي هناك رابطة وثيقة بينهما. فالقلب يضخ الدم ليعيش الدماغ، وإذا حدث نزيف في الدماغ مات القلب. فحياة كِلا العضوَين متداخلة، وهما يشكّلان عضوين مختلفين ولكن لجسد واحد. ومع هذا فإننا لا نستطيع إنكار تفوق الرجل على المرأة إن نظرنا إلى الموضوع نظرةً كلّيةً وشاملةً. الرجل يقضي عامَه كاملًا في فعّالية ونشاط، ويقوم أحيانًا بأشقّ الأعمال، وهو أقوى من المرأة من الناحية الجسَدية والنفْسية، وتُسند أشقّ الأعمال إلى الرجل حتى في الغرب، فعُمّال المناجم من الرجال على الدوام.

أما المرأة فهي تحيض -بحكم طبيعة تكوينها- أيامًا كل شهر، وفي حالة النفاس تبقى ملازمةً للفراش ما يقارب شهرًا ونصف شهر، وهي أضعف من ناحية القوة الجِسْمية وقوة الإرادة، ولا تستطيع حضور جميع المحافل الاجتماعية في جميع الأوقات، وعندما تفقد أثمن كنوزها لا تستطيع النظر إلى وجوه الناس في المجتمع، لذا كان عليها أن تتصرف بحذَر شديد، ولا يجوز لها الخروج إلى سفر طويل وبعيد دون مُصاحبة محرم لها.

فـإذا أخذنـا كل هذه الأمور بنظر الاعتبار وأمـورًا أخرى كذلك لم نر حاجةً لذِكرها ويعلمها الجميـع، ظهرت لنا حقيقة تفوق الرجل على المرأة بشكل لا يمكن إنكاره. ومـع ذلك فإن من نافلة القول أن المجتمـع يحتاج إليهما معًا. المرأة تسـبق الرجل في حدسـها وشفقتها وحنانها، لذا وُكلت إليهـا رعاية الأطفال؛ والأب لا يسـتطيـع القيام بهـذا، ولكنه أقوى تحمّلًا ضد الضغوط الخارجية للأحداث، لأنه مؤهَّل للقيام بأشقّ الأعمال.

عندما يبدأ الطفل بالبكاء في الليل قد يضطر الأب إلى ترك غرفة النوم إلـى غرفة أخرى، ولكن الأم تُسـرع إلـى غرفة الطفل، وقد تبقى معه حتى الصبـاح، لأنهـا تحمـل حنانًا لا يوصـف نحو طفلها. وقد اشـتهرت قصة رمزية بأن أحد الأولاد ذبح أمَّه وقطعها أوصالًا، وعندما بدأ بتقطيـع قلبها جرح يده فصرخ دون إرادة ''آه يا أمي!'' فتكلم قلب الأم ''لبيك يا بني!''. طبعًـا هذه قصـة رمزية ولكنها عظيمة الدلالة على حنان الأم. ولا يَشُـكَّنّ أحد أنه إن ظهر مثل هذا الوحش وظلَم أمه ثم تورط في مشكلة، فإن أمه ستكون أول من تبادر إلى نجدته والوقوف إلى جانبه، أي أن المرأة تسبق الرجـل فـي هذا المجال العاطفي. وإذا تم هذا السـبق في مكانه الصحيح يكون وسيلةً لخير كثير.

المـرأة هـي التي تربّـي النشء الجديـد، فبتربية وتعليـم جيدين ترفـع هـذا النشء إلى أوج الإنسـانية. والرجل يقضي أكثـر أوقاته خارج البيت. أمـا المـرأة فهـي في البيت منـذ الصباح وحتى المسـاء مشـغولة بأطفالها وتربيتهـم التربيـة الصحيحـة. والأمهـات هن مربّيـات الأبطـال والرجال العظـام ومفاخـر الإنسـانية. فـإن قامـت المـرأة بالعمـل ضمـن المجـال الذي تظهر فيه ميزاتها وقابلياتها، وقام الرجل بالعمل ضمن ساحة قابلياته كانت الأسرة جنةً من جنان النعيم.

الرجل بلا امرأة ناقص، والمرأة بلا رجل ناقصة. لذا فإنه ما إن تم خلق آدم عليه السلام في الجنة التي تحتوي كل شيء بأكمل وجه حتى خلقت له أُمّنا حوّاء. ولو كانت حواء أول الخلق لَخُلق لها آدم، لأنه لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر. تقوم المرأة بتدبير الشؤون الداخلية للبيت، والرجل يقوم بالشؤون الخارجية. وإذا كان لعمل الرجل جوانبه الصعبة فيجب أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لعمل المرأة. ولكن قوامة الرجل في البيت المستندة إلى قاعدة "الغُنْم بالغُرْم" تضع على كاهل الرجل مسؤولية ثقيلة أخرى. لذا كان الإنفاق على المرأة وعلى الأولاد وتحمل جميع مصاريف البيت ضمن واجبات الرجل ومسؤولياته.

إن حقوق المرأة المقدمة من قِبَل النِّسائية (*Feminists*) لا تفيد إلا في الهبوط بمنزلة المرأة من مكانها السامي وإهانتها وجعلها تحت الأقدام. واسترجال المرأة عملية حمقاء تشبه التجول عاريًا في الشتاء ولبس المعاطف في الصيف. فالمرأة عزيزة ما بقيت في موقعها الصحيح، والرجل يستحق الاحترام ما بقي داخل حدوده ولم يتجاوزها. والذين يريدون تبديل مواقعهم يتعرضون إلى لعنة الرسول ﷺ، لأنهم يصادمون الفطرة. فالفوضى التي تحصل في الجسم عندما تتغير أماكن أعضائه، فتكون الأذن على الركبة والأنف في وسط البطن والعين تحت الرِّجْل.. مثل هذه الفوضى تحصل عندما يستبدل الرجل والمرأة مكانيهما. فالمرأة يجب أن تبقى امرأة، والرجل يجب أن يبقى رجلًا. فهذا هو حكم الفطرة، والذين يبذلون جهودهم لتبديل هذه المواقع إنما يحاربون الفطرة وطبيعة الأشياء.

الحاجة إلى الدِّين

سـؤال: يقال إن الإنسان عندما لم يستطع إيضاح وتفسير بعض الظواهـر الطبيعية اخترع فكرة الدين. فهل تقدُّم المدنية يزيل الحاجة إلى الدين؟

الجـواب: يدّعي أعداءُ الديـن بأن المفاهيم الدينيـة اختُرعتْ من قبَل الإنسان نتيجة لشعوره بالعجز أو إظهارًا لامتنانه. وخلاصة ما يذكرونه هي:

هناك حوادث تقع في الكون لا نعرف ماهيتها ولا نستطيع تفسيرها بالقوانيـن الفيزيائيـة والكيميائية. فلِكي يحلّ الإنسـان هذه المعضلة أسند هـذه الحـوادث -كما فعل فـي الماضي أيضًـا- إلى خالـق. كذلك أضاف الإنسان قدسية إلى بعض الحيوانات المفيدة له، ثم تطور هذا فأسبغ عليها صفة الألوهية. وكون نهر "الجانج" مقدسًا لدى الهنود ونهر "النيل" مقدسًا لدى المصريين القدماء، وإضفاء القدسية على البقَر في الهند...إلخ، يرجع كلـه إلـى ارتباطه بمنفعة الإنسـان. ولم يكن موقف الإنسـان تجاه الخوف يختلف عن هذا، فخوفه الكبير أو رعبه من بعض الأشياء ساقه إلى تقديسها لكي يصل إلى الأمان منها. وفي بعض الأديان إلهان، إله للخير وإله للشرّ، أي قُسـم الحـب والخـوف بين هذيـن الإلهين، وفكـرة الجنـة والنار تنبع من هذا الأساس. والدين في الأصل -بزعْمهم- تسرية وسلوان بُرجُوازيّ، وهو شـيء مخترع من قبل رجال الدين، وأفيون للشـعوب وللجماهير التي يقوم بتخديرهم... إلى آخر هذه الادعاءات والمزاعم.

فهل الدين كما يقول هؤلاء شيء مخترع فيما بعد لشرح الأمور الغامضة أو ليكون ملجأً وتسريةً وسلوانًا؟ كلَّا، على الإطلاق! فـ"الدين" كلمة عربية، تدل على عدة معانٍ منها الجزاء والطريق. وقد وجدت هذه المفاهيم في تعريف الدين، فهو طريق وصراط، وفيه طاعة الله تعالى، وفيه أيضًا المكافأة لمن أطاع والعِقاب لمن عصى.

أما التعريف الشرعي له فهو "وضعٌ إلهيّ سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات"[٤٣]. يخاطب الدينُ أصحابَ العقول، وهكذا يكون الإنسان قد قام بأعمال الطاعة بإرادته. فالدين يعطي الإرادة حقها ولا يشلها. والطريق الذي يوجه إليه الدين هو طريق للخير المطلق، وليس الخير الذي يراه هذا أو ذاك، بل للخير الحقيقي نفسه.

يقوم الدين بهذا التوجيه من ناحية العقيدة أولًا؛ فقد يستطيع الإنسان بعقله التوصل إلى وجود خالق لهذا الكون. ولكن الإيمان على النحو الصحيح وبالمستوى اليقيني يأتي بعد أن يستمع إلى صوت النبوة الهادر وهو ينعكس على وجدانه الذي خُلق مستعدًّا ومتهيئًا للاستجابة إلى هذا الصوت الذاكر لله. ثم إن النبي عندما يأتي، يأتي مجهَّزا بالأدلة التي تثبت أنه مُرسل من عند الله تعالى. فإذا كان هذا النبي مرسلًا بكتاب معجِز يستمرّ إعجازه إلى يوم القيامة، إلى جانب العديد من المعجزات المؤيِّدة له، فهل يبقى بعد ذلك مجال للشك أو الشبهة؟. إن الإنسان يتمكن آنذاك أن يعرف كيف يؤمن بالآخرة وبالقدَر والأمور الأخرى التي يجب الإيمان بها، كما يقوم النبي بشرح وإيضاح ما غمض من هذه الأمور.

وتقوم العبادة بحفظ هذا الإيمان نضرًا في القلوب، لا يذبل ولا يتفسخ ولا تصيبه الشيخوخة والبِلَى. فالإيمان بلا عبادة يفقد نوره

(٤٣) التعاريف للمناوي: ص: ٣٤٤.

ورَونَقه وشَوقه وعِشقه، فلا يبقى للشخص منه سوى الفخر بعظمائه السابقين المدفونين تحت طبقات التراب. فتراه يذكر دائمًا مناقبهم وأنهم كانوا علماء صالحين وشيوخًا عظماء. لا شك أن ذكرهم بالخير شيء حسن، ولا سيما في هذه الأيام التي كثر فيها توجيه الشتائم إلى الأجداد، إلا أن هذا لا يكفي ولا يضمن للإيمان الاستمرارَ والدوام.

والصلوات الخمس التي نسعى فيها للمثول بين يدي الله تعالى تُجدّد إيماننا، كما تجدد عهدنا الذي عقدناه مع الله وتقوّيه، ولكن بشرط أن نستشعر آيات القرآن عند تلاوتها والتسابيح عند قراءتها في كل ركن من أركان الصلاة. وإذا تسرّبت الإلفة إليها وأدت إلى ذبولها وأفقدتها روحها، فإن هذه الصلاة لن تعني سوى إسقاط للفرض فقط، دون أن نحصل من ورائها على الفيوضات المرتقبة.

لذا نرى أحد الروحانيين العظماء عندما يصل ذات مرة في سجوده إلى حال يستشعر فيها حلاوة الصلاة يقول "ليتني أستطيع أن أصلي صلاة مثل تلك الصلاة مرة أخرى" ويُضيف بعدها "لقد كانت صلوات الصحابة كلها مثل تلك الصلاة". فقد كان كل ركن من أركانها يحمل إليهم رسالة جديدة من الله تعالى. أما الإلفة فلم تكن تجد لها مكانًا في صلاتهم، كما كانت عباداتهم الأخرى تتم في نفس الحالة الروحية الرفيعة. لذلك يجب على من يحج البيت أو يؤدي الزكاة أو يصوم أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينهل من هذه العبادات قوةً معنويةً دافعةً ومحركةً ومقويةً لإيمانه.

الجانب الآخر من الدين متوجه نحو المعاملات. فيجب أن تنظم فعاليات المؤمن الاقتصادية حسب مرضاة الله تعالى، أي لا بد أن يكون القرآن والسنة المقياس في تحديد مبادئ التجارة وأسسها. وهذا من شأنه

أن يكـون قـوةً دافعةً للإيمـان، لأن الالتزام بهذه المبـادئ يتم بقهر النفس ورغباتها والاستسلام لإرادة الله تعالى وأوامره.

لنفـرض أن مؤمنًـا يريـد بيـع بضاعة ما، فعليـه بيان العيـب إن وجد فـي بضاعتـه، ولكن يعـرف أنه إذا ذكر العيب فسـيقلّ ربْحُه أو سيَخسـر، وعلـى الرغـم من ذلك سـيحسّ بانشـراح في قلبـه لأنه أطـاع الله تعالى. وعندما يقف بين يدي ربه في الصلاة سـيكون انشـراحه القلبيّ هذا عاملًا إيجابيًـا في حصولـه على فيض معنوي من الصلاة، وهكـذا يتجدد إيمانُه ويزيد نضرةً. هذه هي الوسائل التي توصلنا إلى مرضاته تعالى.

وقـد أمرَنـا الله ﷻ بابتغـاء الوسـيلة إليـه، وأكّـد النبـي ﷺ أهميتهـا في قصة الثلاثة الذين حُبسوا في المغارة وذكروا أعمالهم الصالحة متوسلين بهـا لنجاتهـم منهـا. فكان أحدهـم بَرًّا بوالديـه، والآخر عفيفًـا في موقف حـرج للغايـة، والثالـث مراعيًا للحق أشـد رعايـة. وقد تضرعـوا إلى الله أن يقبـل أعمالهـم الصالحـة هـذه وسـيلةً لنجاتهـم. فأنجاهـم الله فعـلًا وتدحرجـت الصخـرة الضخمـة التـي سـدّت بـاب المغـارة فخرجـوا سالمين(٤٤). ومن الأهمية بمكان أن يتشبه المسلم بأخلاق الرسول ﷺ قدْر طاقته، ويتتبّـع سـلوكه وتصرفاته في كل شـيء، في مأكله ومشـربه وقيامه وقعوده ومنامه وعبوديته.

وإذا كان الله تعالـى قـد حرم الربا، فيجب علينا الابتعاد عنه والهروب منه حتى ولو أعطَونا بكل قرش ألفًا، والقيام بالتصرف نفسه حيال جميع الآثام صغيرها وكبيرها، لأنها ستعود إلينا يوم القيامة كشعلة نار متّقدة.

مـا نسـتخلصه مـن كل هذا هـو أن الديـن كلٌّ كامل لا يقبـل التجزؤ والانقسـام، أو بعبـارة أخـرى إن ما يقبل الانقسـام والتجـزؤ لا يُعد دينًا.

(٤٤) انظر: البخاري: البيوع، ٩٨؛ مسلم: الذكر، ١٠٠؛ أبو داود: البيوع، ٢٩.

فالديـن يشـبه شـجرةً باسـقةً، العقائـد جذورهـا، والعبـادات ومـا يتعلق بهـا أغصانهـا، والمعامـلات أزهارهـا، والعقوبـات حارسـها، والأوراد والأذكار هـي العناصـر التـي تغـذّي هـذه الشـجرة من تحـت ومن فوق. والدين بوجهه الكامل هذا موضوع من الله تعالى ومبلَّغ من قبَل النبيّ ﷺ.

كان مـن المفـروض أن يتوجـه وجـدان كل إنسـان إلـى ربـه ليتلقى منه روح الدين بشـكل مباشـر ودون وساطة. ولكن بما أن أرواح الجميع لا يمكـن أن تصـل إلـى مرتبـة الصفـاء المطلوبـة فقـد اصطفـى الله ﷻ مـن بين عبـاده أنبياء: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٧٥/٢٢).

والله ﷻ يجعـل مهمـة الرسـالة إلى من يشـاء من عباده مـن الملائكة أو مـن النـاس. وقـد اصطفى مـن بين الملائكـة -الذين لا يعلـم عددهم إلا الله، منهـم من هو راكـع أو سـاجد أو قائـم منذ أن خلقهم الله- جبريلَ الأمين عليه السلام ليبلّـغ رسالته إلى رسولنا ﷺ. وطوال ٢٣ سنة قام جبريل عليه السلام بمهمة نقل الوحي إلى الرسول ﷺ، وكان النبي ﷺ يصغي إليه بكل لطائفه مـع احترام بالـغ. وقد تأسست بينه وبين جبريل عليه السلام طوال هذه السنوات صلة وثيقة بحيث إن جبريل عليه السلام عندما زاره لآخر مرة بكى الرسـول ﷺ. أجل، كان الله تعالى يختار هؤلاء لأداء رسالته.

وقـد اصطفـى الله الأنبياءَ الآخريـن بنفس الصيغة ومـن أفضل الناس وأكثرهم اسـتعدادًا لأداء الرسـالة. فقد كانت معـادن الجميع من الذهب الخالـص. وكمـا كان الرسـول ﷺ "مُصطفى" بهذا الشـكل كان الصحابة الذين تتلمذوا عليه من المصطفَيْنَ الأخيار. وهكذا وبوساطة هذه السلسلة الذهبية انتقل الدِّين إلينا.

وكما تعرض نبيُّنا ﷺ لمختلف أنواع الأذى في سبيل تبليغ الدين، تعرض الأنبياء الآخرون أيضًا إلى صنوف شتّى من العذاب والأذى واضطروا إلى مجابهة جميع الصعوبات، ولم يفعلوا ذلك في سبيل الحصول على أيّ من أعراض الدنيا، بل لو قام الرسول ﷺ بالتخلي عن دعوته لأصبح من الأغنياء ولَوَصل إلى كل ما يشتهيه الإنسان من نعم هذه الدنيا.. لَتزوج من أجمل النساء ولأصبح من زعماء مكة. ولكن ما قيمة كل هذه الأمور أمام النبوة؟

لقد عُرج به إلى السماوات وتناثرت النجوم كالحصى تحت قدمَيه وهو في طريقه إلى ربه. وبعد أن شاهد هناك من صور الجمال ما لم يشاهده أحد من قَبلُ ولن يشاهده من بعد رجع إلى أمته ليرفعها ويسمو بها. فأي إنسان يفارق تلك الأماكن بعد أن شاهد الجمال كل الجمال وذاق القرب كل القرب؟ ولكنه رجع... إلى أين؟ إلى دنيا كانوا يفرشون فيها على طريقه الأشواك ويرمونه بالقاذورات ويقذفونه بالحجارة حتى تدمى قدماه الشريفتان... وإلى مدينة كان يواجهه فيها الاستهزاء اللاذع والإهانة المريرة. إذًا لم تكن المصلحة الشخصية أو الخوف وراء تجشمه كل أنواع العناء في سبيل دعوته وتبليغ رسالته. إن إنسانًا لم تستطع مناظر الجنة أسْر قلبه ففضّل الرجوع إلى أمته لا يمكن أن يكون رجل منفعة أو مصلحة.

إن الله ﷻ غنيّ عن كل شيء، وليس في حاجة إلى عبادتنا، ولكننا نحن بحاجة إلى أن نعبده. ولكي يعيش الإنسان الذي اختاره خليفة له في الأرض من بين جميع المخلوقات الأخرى حياةً متوازنةً، فقد أمره بالعيش بالأسلوب الذي خطه القرآن الكريم. وبعبارة أخرى فإنه تفضَّل علينا وأهدى إلينا منهجًا مضيئًا اسمه الدين بسبب عجزنا

عـن إدارة أنفسـنا إدارة صحيحـة، ولكـي لا ننزلـق إلـى دروب منحرفـة وخاطئة. فأمرنا أن ننظم أنفسنا ونَبنِيها حسب تعاليمه ومقاييسه حتى نتمكن من تشغيل جميع المواهب المكنونة في أنفسنا للسموّ إلى الأعالي.

أجل، نحن بحاجة إلى الدين. ولو تمكن الإنسـان من معرفة حاجاته الحقيقيـة ووعـى أنـه ما خُلق إلا مرشـحًا للسـعادة الأبدية، ولو اسـتطاع استخدام جميـع لطائفه وقابلياته وتَنْمِيَتها لدَعا الله هذا الدعاء ولو بكلمات مختلفة: ''يا رب! أرسِـلْ لنا نظامًا من عندك لكي ندير به أنفسنا ونحفظها من الزلل ومن سلوك الطرق الخاطئة، وأنقِذْنا من التيه بين الطرق المتعرجة والملتوية التي لا تؤدي إلى أيّ هدف''.

لقـد سـار حتـى كبـار الفلاسـفة وعقلاؤهـم سَـيرًا مترنحًـا ومتعثـرًا ولـم يتمكنوا من الوصـول إلى الحقيقة قط، بينما العامي فينا الذي مشـى متتبعًا آثار أقدام الرسول ﷺ لم يخْطُ خطوةً واحدةً في الفراغ، بل عاش في كل مرحلة من مراحل حياته إنسـانًا يعرف نفسـه ويراعي حقوق الآخرين، لأنه يتطلـع إلى مرضاة الله، ويقتدي برسول الله ﷺ الذي هو المثَل الأعلى له، ومن ثم يستغل كل لحظة من رأسمال عمره كبذرة أنبتت سبع سنابل.

لـم يكـن الديـن مخترعًـا من قبـل عقـل الإنسـان اسـتجابةً لمطالبه. أمـا المظهـر الضـروري للديـن الذي يبـدو كذلـك فنابـع من كونـه نظامًا فطريًا يلائم طبيعة الإنسـان، وكونه شـعورًا مغروسًا في فطرة الإنسان منذ البداية. فقد خُلق الإنسان بطبيعة محتاجة إلى تعاليم الدين. فبفضل الدين فقط يدرك الإنسـان الحقيقة والصواب فـي العقيدة والمعاملات، وبفضل الدين فقط يُصبح أهلًا للجنة حيث ينصهر في بوتقته وينضج شـيئًا فشـيئًا حتـى يصـل في النهاية إلى هيئة تمكن الرسـول ﷺ من معرفته وأخذه بيده وضمه إلى أمته تحت لواء الحمد يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: "**مَا مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.**" قَالُوا: وَكَيْفَ تَعْرِفُهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ فِي كَثْرَةِ الْخَلَائِقِ؟ قَالَ: "**أَرَأَيْتَ لَوْ دَخَلْتَ صَبْرَةً فِيهَا خَيْلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ وَفِيهَا فَرَسٌ أَغَرُّ مُحَجَّلٌ أَمَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ مِنْهَا؟**" قَالُوا: بَلَى. قَالَ: "**فَإِنَّ أُمَّتِي يَوْمَئِذٍ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ**"(٤٥).

نحن بحاجة إلى أن نُعرَف هكذا، ونحن المحتاجون إلى الدين وإلى نفحاته التي تهب الحياة.

لقد جاء الدين بأسس إيجابية تحتضن الحياة بأكملها. والنظرة التي ترى الدين شيئًا قاصرًا نظرةٌ ضيقةٌ. والذين يحاولون إقصاء الدين من الحياة ووضعه على الرف سيدركون يومًا ما الجريمة التاريخية التي يهمّون باقْترافها، وسيندمون على فعلتهم هذه. إن هذا الخطأ يُرتكب في كثير من البلدان شرقًا وغربًا، غير أن الدين هو روح الحياة ولن يستطيع أحد إنكار ذلك.

للدين أصول وفروع، أما الأصول فلا يمكن مسها بأي تغيير على الإطلاق. وما من فرق بين ديننا والدين الذي كان عليه آدم عليه السلام في الأصول، إذ إن أسس العقيدة واحدة في جميع الأديان السماوية. ولعدم وجود نص فإنني أحذَر من إصدار حكم قاطع، ولكن يمكن القول بأن أصول الدين هي نفسها بالنسبة للملائكة أيضًا، أي أن جميع الملائكة يؤمنون بما نؤمن به، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر والبعث بعد الموت. أما الفرق ففي درجة الإيمان ومرتبته.

والأمر نفسه ينطبق على العبادات كذلك. فما من تشريع سماوي صحيح أتى دون أن يلزم أبناءه بالعبادة. وقد تختلف هيئة أدائها حسب الشعوب والعهود، لأن الله ﷻ قد حدد لكل أمة عبادةً ملائمةً لطبيعتها

(٤٥) مسند الإمام أحمد: ١٨٩/٤.

وظروفها وزمانها. أجل، قد يختلف الشكل، ولكن المضمون ووجود العبادة أصلٌ ثابتٌ لا يتغير أبدًا.

ولنتناول عقيدة الآخرة على سبيل المثال، فإننا نجدها في جميع الأديان السماوية. فهي من الضروريات التي تحدث عنها كل نبي لأمته تفصيلًا أو إجمالًا. ولولا هذه العقيدة التي تحث الإنسان على الخير وتنهاه عن الشر لزالت الميزة التي تميز الدين عن أي نظام اقتصادي أو اجتماعي بشري. فالدين يبني الكثير من أحكامه وتعاليمه على الإيمان بالبعث بعد الموت.

لو لم يكن هناك إيمان بالآخرة لما كانت هناك فائدة للعبادات ولا للأذى الذي يتعرض له الإنسان في سبيل الدين والتضحيات التي يقدمها، ولا لأي عقيدة أو إيمان؛ ولَخَلع عن نفسه الكثير من الفضائل التي يتحلى بها. فالإيمان بالآخرة هو الذي يحثنا على الالتزام بالفضائل، لأننا نؤمن بأننا إن عملْنا مثقال ذرة خيرًا أو شرًّا فسنراه هناك.

ثم إننا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سنرى فيها جمال ربنا سبحانه، هذه الرؤية التي لا تعادلها حتى حياة الجنة كلها. وبفضل الوصول إلى هذه الهبة الكبرى وبالشوق الذي يشتعل في نفوسنا تنصقل أرواحنا وتسوقنا لسلوك الطريق القويم المؤدي إلى هذا اللقاء دون انحراف.

يقوم الأنبياء بأمر من الله تعالى بنسخ بعض الأحكام الفرعية من الشرائع السابقة ورفع أحكامها، وقد جرت سنة الله على هذا النحو، وهذا مرتبط بنسبة تقدم الوعي لدى الإنسان ونضوجه. فالبشرية كانت تعيش دور الطفولة في عهد آدم عليه السلام بينما شبَّه النبي ﷺ نفسه بشمس وقت العصر، أي إن البشرية وصلت في عهده إلى دور النضج والكمال، وبدأت تميز الحق من الباطل تمييزًا جيدًا، ومن ثم تمسكت بالحق الذي جاء بعد الباطل تمسكًا قويًّا.

جاءت فروع الدين مناسبةً وملائمةً لهذه المرحلة، والله تعالى هو واضع هذه الفروع بحكمته الواسعة. نرى مئات المصالح والحِكَم في أشكال العبادات لهذا الدين، أي إن شكل العبادة فيه مناسب لجماعة ناضجة واعية. أما الأديان الأخرى فقد تعرضت للتحريف والتبديل وفقدت هويتها الأولى. وحتى لو حافظت على هويتها لما كانت ملائمةً للعهد الحالي. ذلك لأن الله تعالى حدّد الدين الذي يرضى عنه وهو الإسلام.

وخلاصة القول، لم يكن الدين قط نتيجة لخوف الإنسان من الآفات الطبيعية كالسيول والصواعق، كما لم يكن كذلك نظامًا اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا لا يهدف إلا إلى حل مشاكل الإنسان الاجتماعية والاقتصادية ليوصله إلى السعادة والرفاه، ولم يكن إفرازًا للطبيعة البشرية كما ادعى "رينان" و"روسو"، بل هو مجموعة قوانين إلهية تكفلت بسعادة الإنسان في الدارين. إن سعادتنا وراحة بالنا مرتبطتان به، وبه يمكن دوام ارتباطنا بالقوانين، وبوساطته يمكن الوصول إلى الجنة والنظر إلى جمال الله تعالى. ومهما ترقت الحضارة فإنها تعجز حتى عن تحقيق السعادة الدنيوية للإنسان، فكيف تستطيع إذًا أن تحل محل الدين؟!!

حقيقة الجهاد في الإسلام

سؤال: بينما نجد الإسلام يتخذ السماحة أساسًا ويُحيل إيمان الناس أو عدم إيمانهم إلى إرادتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٥٦)؛ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: ١٨/٢٩)، نجد فيه أيضًا آيات يُستنبط منها أن الإسلام قد انتشر بالإكراه واتخذ في سبيل ذلك السيف لإرغام الناس على الإيمان به، مثل قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٧٣)؛ (سُورَةُ التَّحْرِيمِ: ٦٦/٩)، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٨٩)، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٢٩)، فكيف نجمع بين هذه الآيات، وما تعريف الجهاد في الإسلام؟

الجواب: ظل النبيُّ ﷺ قُرابة ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو الناس سرًّا وجهرًا إلى التوحيد وإلى ما جاء به الإسلام من هدي عظيم، ثم واصل دعوته خارج مكة، في الطائف والمدينة. فكان أول جمع يتبعه ويجيب دعوته أهل المدينة، لم تمض مدة طويلة حتى لم يبق بيت في المدينة إلا دخل فيه الإسلام، فأصبحت المدينة مهد حضارته

وأول عاصمة له. وخلت الدعوة حتى ذلك اليوم من أي نوع من أنواع الإكراه أو التضييق أو حمل الناس على الإيمان، بل استمعوا وفكروا مليًّا، ثم اختاروا طريق النور برغبتهم ومحض إرادتهم. وهكذا تشكلت بيئة مناسبة للمسلمين يستقرون فيها وينطلقون منها لنشر الإسلام، فلهم أن يعيشوا عالمهم الفكري وحياتَهم الإيمانية والعقدية في حرية دون إملاء.

وكلما تمكَّن هذا المجتمعُ الجديدُ في شِبه الجزيرة العربية بما له من خصائص، وغدا محرابًا تتجه إليه الإنسانية المهمومة القابعة في الظلام، ازدادت قريش طغيانًا وهي من يشتعل فؤادها بعداوة الإسلام، فأغارت على الإسلام وأهله، لتنال من الدين الجديد بأي شكل. ولما امتزجت هذه العداوة البغيضة مع دهاء ونفاق مَن طُبِع على عداوة الأديان في تلك المنطقة؛ هبت عواصف عاتية طوّقت الدينَ الجديدَ وهو ما يزال فسيلةً بل برعمًا في ربيع حياته، واتسع نطاق هذه العواصف وانتشرت زوبعتها حتى دخل فيها الساسانيون والرومان، فأفرز هذا عداءً أبديًّا للإسلام وأهله.

إن بذور العداوة الصليبية والماسونية الممتدة حتى يومنا هذا مردُّها إلى الأيام الأولى التي تأسست فيها الدولة الإسلامية في المدينة؛ وقد أثارت مكافحةُ الإسلام لكل أنواع الزيغ والضلال الفكريّ وكفاحُه لتتويج الإنسان بكرامته المسلوبة من جديد، حميَّةَ بعض عبدة الأصنام وأتباع ديانات أعلنوا عن ولائهم للكنيسة والبِيَع، وما زالت سيول من الدماء تسبب فيها أمثال هؤلاء المفسدين تجري في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا تحت مسمَّيات عدّة.

من هنا نشبت الحرب بين المسلمين وثلاث طوائف تريد أن تطفئ نور الله، وأرى من المفيد تصنيفها للوقوف على كل واحدة منها على حدة:

١- مشركو مكة،

٢- يهود المدينة وخيبر،

٣- الرومان وأتباعهم من عرب آل غسان،

١- مشركو مكة:

أ- غزوة بدر:

تجشم رسول الله ﷺ صعابًا لا تخطر على بال بشر خلال ١٣ سنة من الدعوة في مكة، وواجه ما لاقاه بتحمل كبير وصبر بالغ، ممتثلًا قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سُورَةُ الأَحْقَافِ: ٣٥/٤٦)، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (سُورَةُ الرُّومِ: ٦٠/٣٠)، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٥٥/٤٠)، فواصل ﷺ دعوته في ثبات أولي العزم وصبرهم أسوةً بأنبياء الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

امتدت المرحلة الأولى ١٣ عامًا، واجه فيها المسلمون كثيرًا من المشاقّ والصعاب، ثم غدا تضييق الخناق أمرًا لا يطاق، فزاد القمع والاضطهاد، ولم تعد الحياة في مكة ممكنةً، فأُذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، فتركوا أوطانهم وديارهم وذويهم في مكة، وسلكوا طريق المدينة فرادى وجماعات، فازداد إيذاء المشركين لهم بعد الهجرة، وسلبوا واقتسموا ما تركوه من أموال في مكة، فما عادوا يملكون شيئًا من الدنيا لا في مكة ولا في المدينة.

والحقُّ أن هذه البلدة الجديدة المباركة فتحت صدرها لهؤلاء المهاجرين، واستقبلتهم بحفاوة بالغة، كيف لا وهم أعزُّ مَن ظُلم وأكرم

مـن اضطُهد على مرّ التاريخ. أجل، اسـتقبلتهم، لكـن لم يكن لهم مأوى ولا مطعـم من مالهم الخاص، فاجتهد أهل البلدة المباركة ألّا يُشـعروهم بأي شيء، فشاركوهم آلامهم، وحملوا عنهم عوزهم، فحُقَّ لهم أن يلقبوا بـ"الأنصار". ورغم ذلك ضاقت صدور المهاجرين لما رأوا أنفسـهم عبئًا على إخوانهم من الأنصار؛ وكلما رأوا أموالهم المنهوبة تُباع في الأسواق هنا وهناك ألحّت عليهم الرغبة في إحقاق الحق واسترداد الأموال.

أليـس جديـرًا بالإنسـان أن يقـف مبهـورًا معجبًـا أمـام جلـد هؤلاء المظلوميـن المضطهديـن وصبرهـم وإذعانهم الخالص لأوامـر الله تبارك وتعالى، وهم مَن حِيلَ بينهم وبين حقوق الحياة كافة؛ أخرجهم المشركون من أوطانهم وديارهم واستولوا على أموالهم لتعظم ثروتهم، وكان اليهود والمنافقون في المدينة يثيرون حفيظة قريش عليهم ليطفؤوا نور الإسلام.

فحينما بلـغ المشـركون في ظلمهم وغدرهم الذرى، وبلـغ المؤمنون القمة في صبرهم، جاءت أنباء بأنَّ قافلةً لقريش ستمرّ بالقرب من المدينة فيها أموال المهاجرين وممتلكاتهم المسـلوبة. كان المشـركون قد حجزوا أموال المسـلمين كلهـا، فأهمّ المسـلمين أمرُ اسـترداد الحقوق وتخفيف العبء عن أهل المدينة، فأرشدهم الله سبحانه إلى سبيل تأديب المشركين وإلجـام اليهود والمنافقين ومجازاة قريـش ومعاقبتها، هذه الطامّة الكبرى التي تتربص بالمسلمين للانقضاض عليهم.

ومـن قبل نزلت على رسـول الله ﷺ الآيات الكريمـة بالإذن بالجهاد، يقـول المولـى ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيـنَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيـرٌ ۝ الَّذِيـنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِـمْ بِغَيْرِ حَـقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (سُـورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٣٩-٤٠)، ويأمر في آيات أخرى بمعاقبة المعتدين الذين يتربصون بالمسـلمين بغيًا وطغيانًا، ولم يكتفوا بذلك بل أخرجوهم واسـتولوا على

بيوتهم وأراضيهم وسلبوا أموالهم، يقول ﷻ: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٩١/٢).

أجل، فالذين ظُلِموا واضطُهدوا بأنواع الظلم والاضطهاد ثم أُخرجوا من ديارهم ولا يملكون ولو ما يسدّ الرمق؛ بيَّن الله لهم كيف تُستردّ الحقوق ويحاسَب الخصوم بعد معاناة دامت ثلاث عشرة سنة. كل ذلك ليتسنَّى لهم تبليغ الناس علانية، ومحاربة من يحول دون ذلك، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٧٥/٤)، فهذه الآية توجّههم أن جاهِدوا في سبيل الله ونصرةِ دينه وتحريرِ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من أيدي الكفار المعتدين لتقوموا برعايتهم والعناية بهم. وهدف هذا الجهاد إعادة حق الحياة إلى من حُرِمَه، واستعادة المكانة والتقدير لمن سُلِبَهما، وإلجام من يحول دون انتشار الدين العالميّ. فتحقق ذلك كلّه بحول الله وقوته، ووقعت غزوة بدر الكبرى، ولا أعلم هل يمكن لأحد أن يخرج بعدئذ -بعد كل ما فعله المشركون والوثنيّون بالمسلمين- ليقول: "ليتها لم تَقَع"؟!

ب- غزوة أحد:

لم تستسغ قريش المتكبرة هزيمة بدر، كيف وهي المغرورة المعتدية غليظة القلب التي ألفت الظلم والعدوان، وامتهنت السلب والنهب؟ ثارت حفيظة جبابرتها لانقطاع سبل السلب والنهب وانتقال الزعامة من مكة إلى المدينة، وتولّد لديهم حبّ الانتقام والمواجهة. حملهم هذا الحقد الدفين إلى أطراف المدينة، فهاجموا المسلمين ظلمًا وعدوانًا، فخاض المسلمون المعركة للدفاع عن أنفسهم وعما يجب أن يدافعوا عنه،

فلم يكن أمامهم إلا هذا لحفظ دينهم وشرفهم وأعراضهم، ولا أحد يفعل غير هذا، بل لا يصح أن يُفعل إلا هذا في الحقيقة.

ج- غزوة الخندق:

اشتد حقد المشركين مرة أخرى بعد أُحد واندلعت نيران الكراهية التي لا تعرف الانطفاء إزاء المسلمين، وبتوالي الأيام والشهور عظمت هذه النيران واتسعت، وامتزجت بعداوة اليهود في المدينة، وأحاطت بالمدينة المنورة من جهاتها الأربع، رغبةً في إطفاء نور الإسلام كليةً. أجل، امتزج الغلّ والحقد الذي حمله المشركون سنوات للإسلام والمسلمين مع مؤامرات وتدابير اليهود، لتضيق الخناق على هذه الفئة القليلة من المسلمين في المدينة المنورة، وارتُكبت أخزى شناعة في التاريخ. فقابلها المسلمون بشجاعة وثبات بشكل لا مثيل له في التاريخ، وقدّموا أروع البطولات في سبيل الحفاظ على دينهم وإيمانهم وحماية شرفهم وأعراضهم؛ هذه البطولات التي ستظل كالذكرى الجميلة في الصدور، وتظل محل افتخار إلى الأبد.

كانت الخندق أيضًا معركةً دفاعيةً، من جنس المعارك التي يمكن أن تقوم بها الآن أي أمة تتعرض للعدوان كما وقع في الماضي.

د- فتح مكة:

كان فتح مكة فتحًا مرتقَبًا وأمرًا نبويًّا جرى تنفيذه بدقّة وعلى حساسية كاملة في عدم هدر دم أحد؛ وكان هدفه إزالةَ عقبات جائرة حالت بين المسلمين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق وبين العودة إلى بلدتهم وإحياء حدائقهم وبساتينهم، وتطهيرَ الكعبة من الأوثان، فإليها يتجهون كل يوم خمس مرات، وضمانَ الحرية للمستضعفين

من رجال ونساء وولدان مقهورين مظلومين أسارى بيد المشركين منذ سنوات، وإرساءَ حقوقهم في الحياة وأداء العبادات. أجل، كان فتحًا مباركًا انشرحت به الصدور للإسلام، فدخلت القبائل والعشائر في دين الله أفواجًا، وكانوا من قبل أسارى في حياتهم ومشاعرهم وأفكارهم لِما يمليه عليهم سادة مكة من مطالب ومفاهيم ورغبات.

تحقق فتح مكة كما خُطط له من قبل، وعفا النبي ﷺ عن أهل مكة كافّةً: "**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ**"(٤٦)، وفجأةً لانت بهذا التسامح والعفو العامّ وبتلك العظمة قلوبٌ قاسيةٌ صلدة، وانشرحت الصدور والبصائر، فغدوا بحقٍّ أمناء البلد الأمين، إلا أنهم نكسوا رؤوسهم خجلًا مما فعلوه بالمسلمين من قبل، وراحوا يبحثون عن كفارة يكفِّرون بها عمَّا ارتكبوه من جرائم.

دلّتنا هذه الإشارات المجملة على أن غاية النبي ﷺ من غزواته هي نشرُ الإيمان، وإحقاق الحق، والدفاع عن المظلومين والمضطهدين، وتطهير سبل السعادة ماديةً كانت أم معنويةً من عقبات تعرقل الوصول إليها، وإزالةُ اعتداءات تحول دون نشر نور الإسلام.

ويا للعجب! لم تسفر الغزوات طيلة ثلاثة وعشرين عامًا سوى عن ٣٧٥ قتيلًا، أفيعدل هذا الرقم اليوم ضحايا حوادث المرور شهريًّا؟!

٢- غزو النبي ﷺ لبعض قبائل اليهود:

لم يستسغ بعض أهل الكتاب نبوته ﷺ، ولما انتصر المسلمون في غزوة بدر امتلؤوا غيرةً وحقدًا حملهم على أن يُظهروا ما في جَعبتهم من عداوة للنبي ﷺ وصحبه.

(٤٦) المعجم الكبير للطبراني: ٨/٧-٨؛ السنن الكبرى للبيهقي: ٩/٢٠٢.

أجل؛ لقد استشرى أمر يهود بني قينقاع بعد غزوة بدر، فكانوا يبحثون عن ذريعة لمحاربته ﷺ، وأخذوا يكيدون مع أعداء الإسلام والمسلمين خُفية، ويهددون النبي ﷺ علانيةً، قالوا له -وقد اعتدَوا على امرأة مسلمة في سوقهم-: "لا يغرّنّك أنَّك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فُرصةً، إنَّا -والله- لئن حاربناك لتعلمَنَّ أنا نحنُ الناس"[٤٧]؛ وبذلك كانوا أول من نقض العهد وأثار الفتنة وتعرض لنساء المسلمين بالسوء.

أما بنو النضير فرغم ما بينهم وبين النبي ﷺ من عهد اتفقوا مع قريش سرًّا على جبهة مشتركة ضد الإسلام ونبيه ﷺ.

وأما بنو قريظة فرغم حلفهم مع النبي ﷺ نكثوا عهدهم يوم الخندق يوم أن بلغت القلوب الحناجر، والتحقوا بجبهة قريش ليهدموا حصن الإسلام من داخله.

وذكر المؤرخ المصري حسن إبراهيم حسن في كتابه "تاريخ الإسلام" أن النبي ﷺ لم يتخلّ عن عدله واستقامته وحلمه إزاء ما صدر عن اليهود من خيانات متتابعة، ولم يعاقبهم على ما بدر منهم من خيانات ومحاولات لضرب الإسلام من الخلف إلا بقدر الجرم الذي ارتكبوه، وإنما فعل ذلك دفاعًا عن حقوق الإسلام والمسلمين[٤٨].

مضت غزوة الخندق وما فتئت مراجل حقد اليهود تغلي ولا تهدأ؛ فوضعوا له السمّ في الطعام، وهمّوا أن يرموه بصخرة من أعلى المكان الذي يجلس فيه، وحاكوا له المكايد المتوالية، وحرّضوا عليه أعداء الإسلام كلهم بشتى صنوفهم، ولم يتوانوا في قرار محاربة المسلمين سرّا وعلانية، ولم تفتر عزيمتهم وسعيهم في إثارة الفتن بالمدينة المنورة.

(٤٧) سيرة ابن هشام: ٢/٤٧.

(٤٨) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ١/١١٠.

فلحظ النبي ﷺ هذا كلَّه، وقرر إجلاءهم من المدينة لتنعم العاصمة الإسلامية بالأمن والأمان.

وبعد إجلاء اليهود من المدينة بدؤوا يتجمعون هم وغيرهم في خيبر، واتخذوا منها معقلًا وحِصنًا. فبدأ الأمر ينذر بخطر أكبر؛ فيهود خيبر يضيّقون الخِناق على العرب الفقراء بمعاملاتهم التجارية المنحطّة، ويعقدون صفقات تجارية مع قريش مرّة ومع الرومان مرّة أخرى، لينالوا من المسلمين ويطفئوا نور الإسلام.

قرر النبي ﷺ لمواجهة هذه المكايد التي لا تنتهي أن يحكم خيبر بأحكام الإسلام العادلة، ففتح خيبر بعد غزوة الأحزاب وأدخلها تحت حكمه في ظل النظام الإلهي العادل.

وبهذا الفتح سيطر المسلمون على هؤلاء الضاربين حول المدينة الذين أفسدوا كل شيء، ولم يكن همّهم إلا المكر والمكيدة والكذب وخداع الآخرين، فحيل دون إضرارهم بغيرهم، وكتب الأمان للإسلام والمسلمين.

تُوفيّ النبي ﷺ، وجاء عهد الخلفاء الراشدين وما زال بعض أهل الكتاب في الغدر والخيانة يوغلون، ففي حروب الردة قاموا بمهامّ استفزازية فألّبوا الروم -والمسلمون مشغولون بمشكلاتهم الداخلية- وشكلوا شبكات تجسس للرّوم والساسانيين، وعملوا على هدم الإسلام بلا هوادة. وآخر ذلك محاولة اغتيال عبد الله ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فلما تفاقم أمرهم استشار سيدنا عمر ﷺ الصحابةَ في مسألة إجلاء بعضهم؛ إنهم دُمَّلٌ لا ينفك عن الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة العربية، واعتمد في ذلك على إشارة من النبيّ ﷺ[٤٩]،

(٤٩) عن عمر بن الخطاب ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا" (البخاري: الجزية، ٦؛ مسلم: الجهاد والسير، ٦٣ (واللفظ لمسلم).

فنزل اليهود أرضًا قصيَّةً عن عاصمة الإسلام وأُعطوا أراضي وممتلكات في الأرض التي أُجْلوا إليها.

لا أعلم، هل هناك شيء آخر يمكن أن تقوم به دولة اليوم إذا فعل معها اليهود ما فعلوه بالمسلمين حينذاك؟

٣- ما فعله النبي ﷺ بالرومان ونصارى العرب:

بعث رسول الله ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة الصحابيَّ الحارثَ ابن عمير الأزدي إلى ملك الرّوم بالشام أو إلى ملك بصرى ومعه رسالة يدعوهم النبي ﷺ فيها إلى الإسلام بأسلوب ليّن، فعرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني فقتله، قتله والناس جميعًا يقرون بالقانون الدولي: "ما على الرسول من سبيل"، ولما بلغ النبي ﷺ خبره أنفذ إلى مؤتة جيشًا قوامه ثلاثة آلاف، وأمّر عليهم زيد بن حارثة ﷺ.

بلغ المسلمون مؤتة وواجهوا عدوًّا يزيد عنهم ٢٠-٣٠ ضعفًا، ورغم ذلك صمدوا بفضل مناورات خالد العبقرية، وقفلوا راجعين إلى المدينة بأقلّ الخسائر.

ثم تفاقم عداء الجبهة الرومانية والساسانية للإسلام، وكثُرت الاستفزازات عددًا، لكن الحروب التي خاضها ﷺ طول حياته السنية عبارة عما ذكرنا، وهي حروب دفاعية. بل لك أن تقول: إنه لم يُشهِر السيف قط على مدار حياته النورانية إلا إذا اضطر إليه. فهو إنما أُرسل رسولًا، ليبلغ رسالة ربه الشاملة إلى الإنسانية كافّةً في أرجاء العالم قاطبةً، فما كان له أن يكفّ عنها؛ فهو رسول الله، والإنسانية بحاجة إلى رسالته التي حملها إليها لتسعد وتَبْلُغَ الحقَّ والحقيقة، فقامت الجبهات المذكورة بوضع عقبات أمامه لتحول دون تبليغه لهذا الخير العامّ، وهذا ما كان

متوقَّعًا منها، فعلوا فعلتهم وتغلَّب رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه على ما نصبوه من عراقيل، ورغم وجود ما يُستغرب من قِبل الذين لا يرون حقائق الأشياء وحِكَم الأحداث، لكنّ المهم أنه حقق نتائج طيّبةً.

إنما أرسله الله ﷻ لفتحِ القلوب ببراهين القرآن الألماسية، وإرشادِ الإنسانية إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وربطِ القلوب التي تشتتت هنا وهنالك بالله ﷻ، وتوجيهها إلى التوحيد، وإعادةِ الإنسان إلى إنسانيته، وإحياءِ مبدأ المساواة المتهدم والتوازن المزعزَع بين الناس وإقامةِ العدالة الشاملة مرة أخرى، وإرساء مبدأ حفظ المال والنفس والعرض على أسس سليمة. وكان واجبه في تبليغ رسالته أن يخاطب العقول والقلوب والأرواح، وألّا يلجأ إلى الإكراه مطلقًا؛ وهكذا فعل. أجل، لقد اختار منهج الإقناع والتعليم وسلك مسلك الشرع الربّاني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٢٥٦).. وخاطب العقول والقلوب في ضوء الدستور القرآني: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/١٢٥).. وعلِم لزوم التمييز بين وظيفة الرسول وبين شأن الربوبية، بإرشاد قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٥٤).. واتخذ من التوجيه الإلهي: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (سُورَةُ الغَاشِيَة: ٨٨/٢١-٢٢) دستورًا يتصرف وَفْقًا له وهاديًا يرشده.. ورغم ما قام به الأعداء من أعمال وفِعال شائنة لا تليق به واصل سيره في ضوء البيان القرآني: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (سُورَةُ ق: ٥٠/٤٥).

أجل، ظلَّ ﷺ ينقّب عِدَّةَ سنوات عن الأرواح الطاهرة والقلوب النقيّة بلا ضيق أو ضجر، ولم يقابل السيئة بالسيئة، بل خاطب قلوبًا لم تُغيَّب الإنسانية فيها، ودخل في حوار مع عقول لم تتلوث بالإلحاد والكفر، بل إنه لم يتوان عن تبليغ رسالته وإن في أحلك الظروف.

ولما جاء اليوم الذي عمَّ فيه نورُ الإسلام أرجاء الأرض كافّةً أخذت الأرواح التي ألفت الظلام والظلم والجور تضيق وتتضجر أكثر، وبدؤوا يشكّلون جبهات ليطفئوا نور الإسلام وينالوا من المسلمين وإن كلّف ذلك ما كلَّف؛ إلا أنَّ ذلك العمل النوراني الذي كان أمرًا من الله والوظيفةَ الأساسية لرسول الله قد تقبَّله المؤمنون وأصبح عشقهم وغايتهم المثلى، فنذروا أنفسهم لتحرير الإنسان من الأفكار الجاهلية، ودحضِ الخرافات، وتطهيرِ المعابد والصدور من علائق الآلهة الكاذبة، وحمايةِ الضعفاء والمظلومين، ودرءِ الظلم والاضطهاد بأشكاله كلِّها، وكفالة حرية الدين والعقيدة، ونشر نور الإسلام في أمن وأمان، والرقيّ بمبدأ العدل والمساواة والأخوة بين الناس... فلم يتخلف هؤلاء الربانيون -ولا يُعقَل أن يتخلفوا- عن هذا الطريق النوراني.

ثمّ إنه لما كان الهدف هو سلام العالم وصلاحه، دعت الحاجة إلى القضاء على من يحولون دون بلوغ نور الحق إلى أرجاء العالم، ودحرِ من يعتد على الإسلام، ومعاقبة من يريد إطفاء نوره. وهذا لا يعني أبدًا أن الإسلام قد انتشر بالسيف.

نعم، دخل الإسلام معظم البلاد التي فتحها وحكمَها بلا جيش ولا قتال، هكذا انتشر في عهد النبوة بين العرب، وعلى هذه الشاكلة انتشر في إفريقيا وجنوب آسيا. بل يمكن أن يقال: إن المسلمين الأوائل لم يذهبوا بالإسلام هنا وهناك، بل بفتح قلوب الناس في أرجاء الأرض

أَتَوا بالناس إلى الإسلام وانصهروا معهم. أجل، لم يلجأ المسلمون إلى السيف -بصرف النظر عن استثناءات قليلة جدًّا- إلا لحفظ التوازن العالميّ وحماية المظلومين والمضطهدين، فأدّبوا أهل الظلم والغدر وأعداء النور، ومع ذلك لزموا نهج العدل والاستقامة فلم يجوروا على أحد.

أجل، إن مجتمعًا يلزم الحق والاستقامة في الحرب والغلبة بل في قتل من وجب قتلُه لهو المجتمع المسلم، وإليكم عددًا من الدساتير المهمّة التي اضطلع المسلمون بتطبيقها منذ عهد الخليفة الأول حتى يومنا هذا:

١- لا تخونوا ولا تغلّوا.

٢- ولا تغدروا ولا تمثلوا.

٣- ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة.

٤- ولا تعزقوا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة.

٥- ولا تذبحوا شاةً، ولا بقرةً، ولا بعيرًا إلا لمأكله.

٦- وإذا مررتم بقوم فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له.

توضّح هذه الدساتير الجهادية التي لم نذكر منها إلا اليسير أن المسلمين الأوائل قد سبقوا العالم الحديث بكثير. أجل، لقد حرّم الإسلام الغدر ولو بالعدوّ، والتمثيلَ وعقابَهم بالحرْق، وعزْقَ نخيلهم وبساتينهم وحرْقَها؛ وجعلَ من مبادئه إعلامَ الجبهة المعادية بالحرب قبل إعلانها، وإذا حارب قومًا لا يجيز الغارة عليهم دون دعوتهم إلى الإسلام وتعريفهم بالحقيقة؛ وإذا لقي المسلمون العدو أمرهم بأن تكون نيّتهم إعلاء كلمة الله في أرجاء العالم فقط.

فبفضل إخلاص هؤلاء الأوائل وابتغائهم وجه الله في كل حركاتهم وسكناتهم زُرعت الثقة والأمان فورًا في قلوب أهل البلاد التي فتحوها، فأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا. وإلا لَما كان باستطاعة حفنة من الناس انبعثت من قلب الصحراء أن تسود وتحكم ثلاث قارات، وتحافظ عليها على مدى عدّة عصور.

كثير من الإمبراطوريات على مرّ التاريخ قامت بالسلاح والحروب، ولكن سرعان ما انهارت وتلاشت هي ومؤسّسوها، ولم يعد لها ذِكر. أمَّا الإسلام فإن الإنسانية ما زالت تشعر بوزنه في أرجاء العالم منذ أكثر من ألف سنة رغم محاولات التخريب والتدمير التي تعرّض لها، فسِرُّ هذا يكمن في الصُّلح والصلاح والأمن والأمان والرحمة الشاملة التي تسري في روحه.

إذًا ليس السلاح والقوة أصلًا وغايةً في الإسلام، بل كلاهما حارس لرسالة القرآن وحافظ لنور الإسلام؛ استخدمها الإسلام في إحياء الحق وإقامةِ حرية الفكر وتهدئة رَوع المظلومين والمضطهدين ونصرة الضعفاء والبائسين، وواجه بها أصحاب القلوب المغلقة والأفكار المسبقة الذين يرون الحقّ في القوة، ويتخذون الحياةَ البهيمية هدفًا، ويستمتعون بالظلم والغدر، ويَعتدُّون بأنفسهم شبه آلهة. فبهذه القوة ضَمِن الإسلامُ للناس جميعًا حرية الاختيار والاعتقاد، وهذا جعلهم يؤمنون ويرضون بالإسلام الذي يخرُج هو والقلوب الصافية والأفكار السليمة والعقل والمنطق من مشكاة واحدة.

أجل، إنه النظام الذي تنشده الروح ويعدّه الفكر طبَعيًّا وفطريًّا، ويُسلِّم له العقل والمنطق. أما القوة فهي لتمزيق الحجب التي تحول بين المادِّيّين الذين يرون أن القوة هي كل شيء وبين رؤية الإسلام الذي هو معرض

للجماليّات، وللقضاء على كلّ مارِدٍ متمرّد على الحقيقة يصدّ الناس عن الوصول إلى مناخ الإسلام الجميل، وللكشف عن جسر العبور نحو السعادة الأبديَّة أمام الأبرياء والمضطهدين والأرواح التي تنشد الحقيقة.

الواقع يشهد أن أعداء الإسلام لم يتوانوا من قبل ومن بعد في تشويه صورة الإسلام والمسلمين؛ ليتستروا على ظلمهم وغدرهم وسلبهم ونهبهم وسفكهم للدماء، ويلفتوا الأنظار إلى نواحٍ أخرى.

إن الذي ظلم واستخدم السلاح والجنود هو فرعون؛ آذن بالحرب على كلِّ معبود ليجبر شعبه على عبادة "أخناتون"، وأغلق المعابد الأخرى كافَّةً. ولم يَتَسنّ للبوذية أن تصل إلى سيلان وجنوب آسيا إلا بما مارسه "أسوكا" من قمع واضطهاد وإكراه، وما المازدية سوى سفينة أبحرت في سيل من الدم سفكه "كوباط"، ثم دُفنت معه في مقبرة التاريخ.

وجاء قسطنطين عام ٣١٣م ليرغم الناسَ على اعتناق النصرانية بمكره لا يتصوره عقل، بله ظلمه واستبداده؛ وحارب شارلمان الساكسون ٣٣ سنةً كاملةً فأنهكهم وأرغمهم على التنصُّر، وتنصرت مصر بعد سفك دماء الآلاف من الناس، وتنصَّرت روسيا كرهًا عندما واجهت الدنمارك كيلا تغرق في بحيرات الدم والصديد.

تعلمون أنّ ما ذاقه وما تجرعه العالم الإسلاميّ طوال عصور من ظلم وتنكيل على أيدي الصليبيين لا لِشيء أمرٌ يفوق الوصف والبيان، حتى إن الفاتيكان أعربت في الفترة الأخيرة عن أسفها في هذا الصدد. لقد هدموا وأحرقوا البلاد التي دخلوها في سبيل إرغام الناس على التنصر، وذبحوا أهلها ولم يرعوا ذمّةً لشيخ كبير أو امرأة أو طفل، ونهبوا وسلبوا القبور والمعابد، وحوَّلوا المساجد والزوايا إلى إسطبلات للخيول، فعلوا ذلك كله وهم يزعمون أنهم يحسنون للنصرانية، وخير شاهد

على ذلك كُتُبهم والتحف الإسلامية التي يعرضونها اليوم في أرجاء العالم كافّةً، وخاصةً المستبدّين والقمعيّين الذين يسعَون للسيطرة على العالم وحدهم... إن الكتّاب الغربيّين الذين لا يعتدُّون بما قام به هؤلاء من فظاعات وشناعات بل يتجاهلونها بعيدون عن الإنصاف والموضوعية حتى يوثَقَ بهم وبكلامهم، ومثلهم من نحا نحوهم بلا وعي من نظرائهم في العالم الإسلامي.

وليس ما عرضناه آنفًا محض ادعاء بل هي حقائق تدعمها أدلة، كتب عنها مئات المنصفين من الكتّاب الغربيين أمثال توماس أرنولد وتوينبي؛ أكّدوا أن المسلمين لم يسفكوا الدماء في البلدان التي فتحوها ولم يلجؤوا إلى القوة والإكراه؛ ونرى من المفيد هنا التذكير بعدد من الوقائع التي تشير إلى ذلك:

١- لما فتح المسلمون دمشق اعتنق معظم الناس الإسلام، أما الآخرون فدخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم، ثم دخلوا في الإسلام باختيارهم ومحض إرادتهم شيئًا فشيئًا، بل إن من ظل على النصرانية منهم هُرعوا إلى الكنائس يدعون الله أن ينصر المسلمين عندما حاول الرومان المسيحيون الاستيلاءَ على دمشق مرة أخرى.

٢- ذكر توماس أرنولد في كتابه ''تاريخ انتشار الإسلام'' أن كل الدول الإفريقية التي دخلها الرومان وفي مقدمتها مصر عانت كثيرًا تحت نِير الحكام المسيحيين إلى أن بزغ نور الإسلام في تلك الأماكن.

أجل، بفضل الإسلام عاد الشعب المصري إلى إنسانيته مرة أخرى، فكانت مصر مركزًا مهمًّا خلال الفتوحات الإسلامية لإفريقيا ثم غدت في الفترات التالية مهدًا للحركات العلمية والثقافية.

٣- ومن الحقائق التي اتفق عليها كثير من الأصدقاء وجمع من الأعداء أن شعب الأندلس عندما اعتنق الإسلام، تحوّلت إسبانيا إلى مركز ثقافي علمي مهم تحت راية الإسلام على مدى ثمانية قرون؛ ولا يليق بنا أن نذكر هنا ما قامت به بعض الدول الغربية ضد الإنسان والإنسانية والعلم والثقافة بعد ذلك.

٤- فتح العثمانيون إسطنبول ودول البلقان وأوربا الشرقية بالعدل والنَّصَفَة والعفّة والمرحمة؛ فاعتنقت الدول المنهزمة الإسلام بإرادتها واختيارها.

٥- ومن الحقائق المجمع عليها أن بلاد ما وراء النهر اعتنقت الإسلام بإرادتها واختيارها وهكذا السلاجقة من بعد، واضطلعوا بوظيفة رفع راية الإسلام عدة عصور، وحققوا هذا بفضل نور الإسلام.

٦- دخل الإسلام في أوغندا والصومال وسومطرة وجاوا والفلبين على يد الدعاة الربانيين، واستحسن شعوب هذه البلدان الإسلامَ وقبلوه وعملوا به لما رأوا في سلوكيات هؤلاء المرشدين اللطفاء من لطف وظرافة وأخلاق حسنة، يعترف بهذا كثير من الكتّاب الغربيين من أمثال: توماس كارليل، وغوستاف لوبون، وتوماس أرنولد، وتوينبي.

عُرف المسلمون واشتهروا بأنهم كالحَفَظة من الملائكة، هكذا كان الأمر في معظم البلاد التي دخلت تحت مظلة الإسلام على مرّ التاريخ، لم يشْكُ منهم ذِمّيٌّ قطّ، واستمر هذا الحال الذي تحفّه السكينة والراحة حتى قام الغربيون بتحريض ذميين يعيشون في المجتمع الإسلامي لإثارة المشكلات تِباعًا في بقاع العالم كلّه. إن هذه الشعوب التي وقعت فريسةً لهؤلاء ندمت فيما بعد على ما قدّمت وبكت، بكت ولكن هيهات فقد فات الأوان.

نعم، إن الإسلام هو النظام الوحيد الذي جاء بمبادئ السلام العالمي، وناشد العقل والروح والوجدان معًا، وغلب خصومه بالحجة والمنطق، ولا نظير له في ذلك. والمسلمون -وهم من يمثل هذا النظام- تعلقت أفئدتهم بنور الكتاب والسنة، وبهديهما اهتدوا إلى جعل الكون مهدًا للأخوة، فبحثوا عن سبل التحاور مع الناس جميعًا بأي شكل. فقد أرشدهم القرآن الكريم إلى أنَّ الأساسَ في التعاملِ مع الناس هو المروءة والشهامة، ودلَّهم على أعلى الغايات التي لا بد أن يَصبُو إليها المؤمنون بقوله ﷻ: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ: ٨/٦٠)، بل يمكن أن يقال: إن الإسلام يفضّل البر والإحسان في التعامل مع الآخر أيًّا كان، فقد أوصى المسلم مثلًا بحسن معاملة أبويه وإن كانا مشركين، يقول ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ١٤/٣١-١٥). وأَرْشَدَ المسلمين إلى أعلى درجاتِ اللين عند مجادلة أهل الكتاب وبيان الحق والحقيقة لهم، يقول ﷻ: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (سُورَةُ العَنْكَبوتِ: ٤٦/٢٩).

لذلك عامل نبينا ﷺ جميع من لاذوا بالإسلام بالحسنى وأحسن إليهم، ومَن قبِل ذمتنا منهم عدَّهم والمسلمين سواء في الحقوق، وبكل وسيلة أشعرهم بأنه أُرسلَ رحمة للعالمين؛ فإن دعَوه أجاب دعوتهم وأجلّ جنازتهم وعاد مريضهم، بل استدان عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب ورهنهم درعه، وباع واشترى منهم، وجعل كل من كان في ذمة المسلمين في عزة الورود، وأعطى لحقوق أهل الذمة كرامةً لا سبيل للوصول

إلى قدرها ومكانتها عندما قال ﷺ: "**مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٥٠)؛ وبيّن للمسلمين حرمة قتل المعاهد أو الذميّ، وحذّرهم بأن ذلك قد يحرمهم من دخول الجنة: "**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**"(٥١)، فأشار بذلك إلى أعلى ذرى القيم الإنسانية، التي لم ولن يستطيع أي نظام قانوني أو فكر فلسفي إنساني قديمًا أو حديثًا أن يبلغها.

ومثلما كان كل شيء في عهد النبي ﷺ يجري على نحو يفوق الوصف كذلك نرى خلفاء المسلمين -عدا ما كان في بعض العهود القاتمة القليلة- قد أظهروا مثل تلك العناية الفائقة في حفظ أمانة الإسلام التي ورثوها عنه ﷺ، ورضي الله عنهم ورضوا عنه.

(٥٠) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٣٤٢/٩.

(٥١) البخاري: الجزية، ٥.

قدرة الإسلام على حل جميع المشكلات

سؤال: هل لدى الإسلام حلّ لكلّ قضية؟

الجواب: أجل، إنه كافٍ وافٍ، وما قلناه بالأمس أصبح الناس جميعًا يعترفون به اليوم، وإقبال الكثيرين في الغرب على اعتناق الإسلام خير دليل على ما نقول.

هب أن لمصنعٍ ما نظامًا يعمل به، فمن أعرف به من مؤسِّسه وواضعه؟ ها أنتم ترجعون في تشغيل أسهل آلة إلكترونيّة إلى من يعرف نظام تشغيلها؛ والله هو خالق الإنسان، فهو أعلم بنظام حياة الإنسان الاجتماعية والفردية، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سُورَةُ الْمُلْكِ: ١٤/٦٧)، فالوسيلة الوحيدة الكفيلة بسعادة البشر في الدنيا والآخرة هي دِينُ الله.

واليوم يسلّم الناس جميعًا بهذه الحقيقة؛ فالأنظمة التي وضعها البشر أَفْلست برمتها، ونجاحها كان مؤقتًا، ومنها نظام الإقطاع والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، فرغم أنها كانت من أشهر النظم على مر التاريخ إلا أنها انهارت واندثرت تِباعًا، وخلفت وراءها صراخًا وعويلًا لا ينقطع، بينما لم يفقد الإسلام من جوهره شيئًا قط منذ ظهوره حتى اليوم.

والغرب على وعي بهذا، فالدُّعاة الذين لهم عُرًى وثيقة مع الله يَلْقَون استحسانًا وقبولًا حسنًا في العديد من الدول الغربية، وقاعات الكنائس اليوم غدت تتنفس عبق محبة الإسلام.

واليوم تتجه الإنسانية التي أثقلتها مشكلات العصر إلى الإسلام من جديد، وقد اتسعت كثيرًا دائرةُ قناعاتٍ ترى أنَّ الإسلام هو الحلُّ لمعضلاتٍ مستعصيةٍ طالَ أنين البشرية تحت وطأتها.

واليوم يعترف الناسُ بهذه الحقيقة جميعًا حتى بعض من يعادي الإسلام، وهذا لا يخفى في أحاديثهم وشهاداتهم، والحق ما شهد به الأعداء.

وما أكثر مَن أسلم في أوربا الآن لكنهم يخشون مَن حولهم فيُخفون إسلامهم.

وإذا أردنا أن نمثِّل لهذا فلا بد من إحصاء القضايا كلها واحدة واحدة، لنبين كيف حلّ الإسلام كلًّا منها على حدة، وهذا لا تتسع له عدة مجلدات، ويتعذر سبر أغوار موضوع كهذا في جواب سؤال.

وعلاوة على ذلك، فعلى هؤلاء أن يبيّنوا لنا أي معضلة تعذّر على الإسلام حلُّها لنرُدّ ونبيّن، لكنهم لما سألوا سؤالًا نظريًّا كان جوابنا مثلَه، ناهيك عن أن كثرة الكلام في المسلَّمات عبث، وهو ما لا يستحسنه الإسلام ألبتة.

منطقية الإسلام والتعبدية

سؤال: يقال إن الاسلام دين يلائم العقل والمنطق، ولكنه يستند إلى النصوص وهذا يستوجب التسليم والإذعان، فكيف الجمع بينهما؟

الجواب: أجل، هو كذلك، فالإسلام موافق للعقل والمنطق وهو يستدعي الإذعان والتسليم كذلك. ذلك لأن العقل والمنطق لا يضادّان الإذعان والتسليم. فقد يكون شيء ما منطقيًّا، ويستلزم التسليم به. كذلك لا يستطيع أحد الادعاء بأن شيئًا ما إن اقتضى التسليم فهو لا بد غير منطقي، فالمنطق لا يقبل مثل هذا الادعاء. والآن لنشرح هذا الموضوع في نطاق العقل والمنطق.

لقد تناول الإسلام المسائل التي يجب الإيمان بها بكتابه الذي يقرأ الكون ويشرَحه لنا بشكل عقليّ ومنطقيّ. وبعد القيام بإثبات ألوهيته وربوبيته تعالى بهذا الشكل، تناول النبوة المتلازمة مع هذه الألوهية وهذه الربوبية -وهي نتيجة ضرورية لها- بأدلة مقنعة جدًّا، إذ لا بدّ من أنبياء يقومون بالإرشاد وإعلان وبيان الألوهية والربوبية، ثم شرَح هذا بأدلة عقلية ومنطقية قوية. وتناول أيضًا البعث بعد الموت. أجل، يقتضي العقل والمنطق بعث الناس ليحيَوا حياةً أبديةً، وإلا كانت غريزة حب الخلود المعطاة لهم عبثًا ودون معنى، وبما أن الله تعالى منزه عن العبَث، فلا بد من إهداء مثل هذه الحياة الأبدية للإنسان، والذي خلق الوجود أول مرة هو الذي يُنشئ النشأةَ الآخرة.

القـرآن كلام الله، ولـو اجتمـع الإنس والجن على أن يأتوا بآية واحدة مشابهة لآياته لَما استطاعوا ذلك. وما دام هو كلام الله تعالى، إذًا فالكُتب والصُّحف السماوية الأخرى التي صدّقها القرآنُ من كلام الله تعالى أيضًا.

لـن ندخل في شـرح مفصّل لهـذه المواضيـع التي سـبق أن تناولناها في مواضـع أخرى بشـكل مفصّل، ولكننا أشَـرنا إليها لإعطاء فكرة عنها. وبعـد القيـام بالإثبات والبرهنة على جميـع مسـائل العقيدة بشـكل عقلي ومنطقـي نصل إلـى موضـع لا يمكن السـير فيه بأرجل المنطـق وأدواته، لأن معاني الحقيقة التي يحسـها الإنسـان في وجدانه وقلبه فهي من القوة حتى إن جميـع الأدلة تغدو ضعيفةً باهتةً بجانبها.

إن جميـع أفعال الله تعالى وتصرفاته مستندة إلى العقل وإلى المنطق، كيف لا وهو العليم الحكيم، لا يصدر منه أي عبث. وقد رأينا أن الإنسان عندما يعمل في ساحات علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والفيزياء الفلكية يصل بفضل قوانين هذه العلوم إلى مبادئ ثابتة. ونحن نشاهد أن ما يفعله ومـا ينجـزه أمهر شـخص وأعلمه يبقى شـيئًا باهتًا بالنسـبة إلى صنـع الله. إذًا فللّهِ تعالى حكمة في كل فعل، وهذه الحكمة عقلية ومنطقية.

وهكـذا فـإن آيـات الله فـي الآفاق وفـي أنفسـنا تربطنا وتسـوقنا إلى الإيمـان بالله تعالى. ففي البداية نجـد العقل والمنطق وفي النهاية الإذعانَ والتسـليمَ. وما دمنا قد أذعنا له فيجب علينا اتباع أقواله، وهنا تظهر أمامنا طبعًـا المسـائل المتعلقة بالعبادات كالصلاة والصـوم والزكاة والحج، أي الخصائص المتعلقة بالعبودية.

إن القيـام بهـذه العبـادات مظهر من مظاهر الإذعان والتسـليم. ولكن نستطيـع هنا تقييم كل هذه المسائل تقييمًا عقليًّا ومنطقيًّا وملاحظة الحِكَم الموجودة فيها. لا شـك أن هناك حِكمًـا عديدةً في الأوقات التي فرضت

فيها الصلاة. ولا شك أن حركات الصلاة بهذا الشكل ليست عشوائيةً بل هي مقصودة، كما أن الأمر بغسل أعضاء معينة في الوضوء لا بد أنه مستند إلى فائدة وحكمة، وكما أن الصلاة جماعةً لها دور مهم في تأسيس الحياة الاجتماعية، وفرض الزكاة له دور إيجابي وحِكم عديدة في تأسيس التوازن بين الأغنياء والفقراء. أما الفوائد الصحية للصوم فهي أكثر من أن تعد، وفي أحكام العقوبات في الإسلام دروس مذهلة وحِكم عديدة، ولو دققنا النظر فيها من ناحية العقل والمنطق لَوصلنا إلى النقطة نفسها، وهي الإذعان والتسليم.

لنأخذ الحج مثلًا، لنقل إننا قبلنا الحج فريضةً من البداية لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٩٧/٣)، أي أصبح الحج فريضةً على من استطاع إليه سبيلًا من الرجال والنساء. هذه النظرة تبدأ من نقطة الإذعان والتسليم، فنحن نقول "لبَّيك اللّهم لبَّيك" ونذهب إلى الحج ثم ننظر وندقق ماذا يعطينا الحج في نطاق العالم الإسلامي فنرى أنه مؤتمر إسلامي عالمي على المستويات كافة، وهو يؤسس أرضية خصبة مضمونة لتحويل المسلمين إلى جسد واحد من أقصر طريق. وإن نظرنا إلى القضية من ناحية العدالة الاجتماعية نرى أن اجتماع كل الناس -الفقراء منهم والأغنياء، العلماء منهم والعوام- على صعيد واحد وفي الشروط والظروف نفسها من أجل غاية واحدة، وهي إظهار العبودية لله تعالى، يقوّي يَقيننا بأن الإسلام نظام عالمي ويزيد من ثقتنا به.

إذًا فسواء أكانت نقطة انطلاقنا من العقل والمنطق فسنصل إلى الإذعان والتسليم، أو كانت نقطة انطلاقنا من الإذعان والتسليم فسنصل إلى العقل والمنطق، فالنتيجة واحدة، ومن ثم فالإسلام عقلي

ومنطقي من جهة، وإذعان وتسليم من جهة أخرى. ففي أمر معين يتم الانطلاق من العقل والمنطق ليتم الوصول إلى الإذعان والتسليم، وفي أمر آخر يتم الانطلاق من الإذعان والتسليم ليتم الوصول إلى العقل والمنطق. وما كان هذا النظام الإلهي الذي وَضع أمامنا الكون كتابًا مفتوحًا إلا أن يكون بهذه الخصائص.

الإسلام والرقّ

سؤال: كيف يُبيحُ الرِّقَّ دِينٌ نزل من عند الله على خير البشرية؟

الجواب: لهذا الموضوع جوانب تاريخية واجتماعية ونفسية، ولو أنّا صبرنا قليلًا لجاءنا الجواب عليه وعلى غيره مما يثور في أذهاننا.

١- أوَّلًا من المفيد ذكر أسباب قديمة وحديثة تبغِّضنا في الرق وتنفِّرنا منه؛ فالتاريخ والحياة من منظور ماديّ قد ظهرت على مسرحهما ثنائيّات في العلاقات، فمثلًا: العامل وربّ العمل، والفقير والغني، والظالم والمظلوم، ومفاهيم أخرى مثل الطبيعة والفطرة في التكامل الاجتماعي، والرق والأسر، وأجور العمال الجائرة وغيرها من قضايا استُغِلّت وهتف لها الناس جميعًا ولم يبق أحد يسعه أن يفكِّر بخلاف ذلك، هذا وتقتضي الحيطة فتح الباب أمام الآراء كلّها، إلا أن وجهة نظر واحدة قد سادت فجاء الحكم من طرف واحد.

٢- إن ما حلّ بالعبيد من ظلم ووحشيةٍ في التاريخ القديم لا سيما تاريخ روما ومصر تشتعل له قلوبنا ألمًا ويبعث على الاشمئزاز، فرغم مرور قرون ما زلنا نتذكر كم قاسى العبيد في بناء الأهرام، وكيف اختفى بعضهم تحت الصخور وكأنه قَشة، ونتذكر عبيدًا يرغمهم الحُكَّام الظلمة على مصارعة الأسود للتسلية، وفي أعناقهم سلاسل فمَقَتْنَا الاستعباد والمستعبِدين.

٣- واليوم يرقب هذا الجيل معاملة الأسرى الوحشيّة الجائرة في العصر الحديث وفي أيامنا هذه، ويتألم ككل ذي وجدان ويغضب ويستنكر.

لهذا كلّه مقت هذا الجيلُ الرِّقَ ونفر منه وعادَى كلَّ نظام دافع عنه، وهو محِقّ في هذا بلا ريب، أمَّا هجومه على الإسلام ونقده له فما أبعدَه عن الإنصاف! فنشأة الرِّق لا تعود إلى الإسلام، ولم تستمد منه ماء حياتها وروح بقائها، بل استمدت وجودها وبقاءها وحافظت عليهما من قبل ومن بعدُ من أمم أخرى؛ لذا سنبدأ أوَّلًا بالأسباب والعوامل التي أوجدتها:

الرّق من آثار الحروب، واستمراره رهنٌ برغبة الأُمم؛ فـ"رُوما" مثلًا -بشهادة تاريخها- دولة لَهْو ونزوات، همُّها الملابس الفاخرة وموائد الطعام المتخمة بألوان الأطعمة والأشربة، وحياتها بهيمية مُخزية؛ ومن أجل دوام حياة الإسراف والبذخ هذه كان من الضروري استمرار ورود الثروات والغنائم والعبيد والأسرى إليها، فاحتلَّت البلاد وأقامت المستعمرات لتستمرَّ سيطرتها على العالم.

ولما فتح المسلمون مصر رأوا هذا الجو نفسه بكل قبحه وشناعته، فهذه سوق أمتعة وبجوارها سوق نخاسة، فيها عبيد يُباعون والأغلال في أعناقهم، وهم في حالة إنسانية مزرية، وبعض الإماء يُعرَضن شبه عرايا أمام الزبائن؛ وإذا حلّ المساء نام العبيد في أماكن قذرة مكتظة بالحشرات تفوح منها رائحة كريهة؛ وأحيانًا لا يجدونها، فيُحشَر خمسون أو مائة منهم في مكانٍ ضيّق، بعضهم فوق بعض... مشاهد وصور لم يشهدها المسلمون ولم يألفوها، فأحزنهم ذلك حزنًا كبيرًا، وراحوا يضمّدون هذا الجرح بمبادئ الإسلام حيثما حلّوا، أمَّا الغرب فاستنسخ تلك الصور من روما ومصر القديمة بلا رَتْقٍ ولا إصلاح، فكان على العبيد خدمة الإقطاعيّين وتسليتهم بالمصارعة ليَقتلوا أو يُقتَلوا، مثلما كان المصارعون في روما القديمة السفيهة يفعلون.

نظر الإسلام إلى الرّق أولًا على أنه ظاهرة قائمة، ثم ذكّر الناس جميعًا أنّ العبيد ليسوا متاعًا ولا مَسْلاةً، وأنّهم وغيرهم في الإنسانية سواء. قال الله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٢٥)، وقال النبيّ ﷺ: "مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ، ومَنْ خَصَى عَبْدَهُ خَصَيْنَاهُ"(٥٢)، "النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ"(٥٣)، "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى"(٥٤)، فبمثل هذه المبادئ وضَّح الإسلامُ الطريقَ الصحيحَ والفهمَ القويم وسدّ باب الانحراف، فالفضل والمزية يرتبطان بمنزلة الإنسان عند الله وتصحيحِ الإنسان لسلوكياته بما يتواءم مع تلك المنزلة.

وكم من أشعث أغبر -كما جاء في الحديث الشريف- حظيَ بفضل هذه المبادئ السمحة بتقدير وتبجيل لدى الأشراف ووجهاء الدولة، فهذا عمر ﷺ يقول: "أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا (يَعْنِي بِلَالًا)"(٥٥)، وهذا منه تعظيمٌ لذاك المبدأ الإسلاميّ.

الإسلام ينظر للعبد من منظور الأخوة الإسلامية، "إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"(٥٦)، "لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، اِسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلَايَ؛ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي"(٥٧).

(٥٢) أبو داود: الديات، ٧؛ الترمذي، الديات، ١٦؛ المستدرك للحاكم: ٤/٤٠٨.

(٥٣) الترمذي: تفسير القرآن، سورة الحجرات؛ أبو داود: الأدب، ١٢٠.

(٥٤) مسند الإمام أحمد: ٥/٤١١؛ شعب الإيمان للبيهقي: ٧/١٣٢؛ المعجم الكبير للطبراني: ١٨/١٢.

(٥٥) البخاري: فضائل أصحاب النبي، ٢٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٦/٣٥٣.

(٥٦) البخاري: الإيمان، ٢٢؛ مسلم: الأيمان، ٤٠.

(٥٧) البخاري: العتق، ١٧؛ مسلم: ألفاظ، ١٤؛ مسند الإمام أحمد: ٢/٤٤٤.

وهـذا ما جعل عمر وخادمه يتناوبـان الركوب يوم أنْ توجَّه عمر تلقاء القدس ليتسـلّم مفاتيح المسـجد الأقصـى؛ وجعل عثمـانَ الخليفةَ يقتصُّ لخادمه من نفسه على الملأ وكان قد أمسك بأذن غلامه يجرُّها إليه؛ وَحَدَا بالصحابيّ الجليل أبي ذر ﷺ إلى أن يقسم ملابسه بينه وبين غلامه نصفين...

لقد تقرَّر بهذا كله: أن العبد إنسان مثله مثل غيره من الناس لا يفضله أحدٌ بشـيء، فهـذه المرحلة هي الأولى، وقد أُرسـيَت تلـك القاعدة قويَّةً قويمـةً. ولا بُـدّ أن نذكِّـر ونكـرِّر بأنّ هذا يُعَـدّ انقلابًا كبيرًا فـي بلد قصيّ معزولٍ عن العالَم، في مجتمـع بِكْر في العواطف والمشاعر.

وضـع الإسـلام للرقيق مبـدأً فيه كثير من الإيجابية والسـعة والعمق، في حين أن سـائر الأمم والدُّوَل لا تُقِرّ لهم حتى بالإنسـانية، ولا تعبأ بها بل يسخرون بها ويستهزئون، فكان يُزَجّ بهم في حلبات مصارعة الوحوش، ويُسامون سوء العذاب.

وتركَـتْ هـذه المعاملـة الإيجابيّةُ الحسـنةُ أثرَهـا الطيّبَ فـي الرقيق، فيَوْمَ أن أُقرّ لهم بالإنسـانية وتَسَـاوَى العبدُ مـع سـيده، كان فيهم من أعتقه سـيِّده فأبـى فراقَـه، مثل زيد بـن حارثة وآخريـن من بعـده، فعندما أعتقه الرسـول ﷺ خيّـره بين المكث عنـده والرجوع إلى أهلـه، فاختار المكث عنده ﷺ، وفعل بعده كثيرون مثلما فعل. فمعاملة السيد للرقيق كانت بالغةَ الحسـن والرّقَّة حتى كان بعض الرقيق يَعُدّ نفسـه من أفراد أسـرة سـيده، وكان سيده أيضًا يراه على هذه الصورة ويرعى حقوقه أيما رعاية ويساويه بنفسه في الإنسانية. وليس بوسـع السيد أن يفعل سوى ذلك، فهو وإن بدا اليـوم مالكًا فمن يدري فلعله يغدو مملوكًا غدًا، وكانت للمبادئ صلابتها وقوتها رسـخَتْ بهما هذه المفاهيمُ الإنسـانية أيّما رسـوخ: "**مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ**

قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ"[٥٨]. فلا يسَعُ السيّدَ أمام مثلِ هذه الأحكام إلا أن يتصرَّف بكلِّ حيطة وحذر، أمَّا العبدُ فيطمئنّ بها اطمئنانًا كبيرًا؛ تلك هي المرحلة الأولى لما جاء به الإسلام، وإنّها لَخطوات لم يسبق إليها أحد في التاريخ.

أما المرحلة الثانية فالعتق والتحرير، فحريّة الإنسان هي الأصل، واسترقاق الحرّ من الكبائر، وبيعه وأكل ثمنه حرامٌ قطعًا، وكلّ ما من شأنه تقييد الحرية مذموم مرذول، وكلّ ما من شأنه التحرير وفكّ الرّقاب محمودٌ موقَّر في الإسلام: "**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ**"[٥٩]، ومن أعتق نصفها أعتق الله نصفه، فتحرير الرقيق من الأمور المهمة التي عمِل الإسلام على تحقيقها، فتجده مرّة يعدّه وظيفةً يجب أداؤها، ومرة يحثّ عليه ويعدّه فضيلةً، ثم تجده يفتح للرقيق طريق الحرية الكاملة بالعقود والمكاتبات.

ما ظهر تحرير الرقيق بأحسن صورته واستمرّ إلا بمجيء الإسلام، وكلنا يعرف ما أنفقه الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ في شراء الرقيق وتحريرهم، فكم وكم أنفقا في هذا السبيل.

بادئ الأمر بادَرَ أفرادٌ، فأنفقوا أموالَهم في شراء الرقيق وتحريرِهم، ثم تولَّت الدولة الأمرَ وعدَّته إحدى مهامّها، فأعتق الرسول ﷺ مِن أسرى بدر مَن يعلِّم عشرةً القراءةَ والكتابة، فعل هذا وكانت الدولة في ضيق اقتصاديّ خانق، واستمرّ الأمر هكذا بعده ﷺ، لا سيما في عهد عمر بن عبد العزيز حيث جعل تحريرَ الرقيق من أهم مصارف الزكاة، فيُعتَق من بيت المال كثير من الأسرى جيء بهم من هنا وهناك ويؤوبون أحرارًا، ثم شُرعت

(٥٨) أبو داود: الديات، ٧؛ الترمذي: الديات، ١٧.

(٥٩) البخاري: كفارة الأيمان، ٦؛ مسلم: العتق، ٢٢.

كفارات لذنوب وزلّات تقع في العبادات أو لتقويم سلوكٍ ما تستلزم عتق الرقاب، فأمر الشرع بالعتق في كفارة قتل الخطأ واليمين والظهار:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٩٢).

﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٨٩).

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ: ٥٨/٣).

يترتب على جناية القتل حقّ عامّ للمجتمع وحقّ خاصّ لأولياء القتيل، فالدية عزاء لأهل القتيل وسلوان، وتحرير الرقبة حقٌّ للمجتمع فهي تزيده فردًا حرًّا، أي إنها تحيي فردًا تعويضًا عن خسارة المجتمع لآخر.

زد على هذا طرقَ التحرير الأخرى كالمكاتبة والتدبير، أمَّا المكاتبة فهي عقد عتق بعوض يتَّفِقُ عليه العبد مع سيّده، وبها تتفتح له طريق الحرية، ونستنبط من صريح بيان القرآن في هذا[٦٠] أنّه عندما يتفقان على العوض لا يبقى سوى الوفاء بالعوض.

(٦٠) ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٤/٣٣).

أما التدبير فهو أن يعلّق الرجلُ عتقَ عَبْدِهِ بِمَوْته أي موت السيد، فإذا قال: ''أَنْتَ حُرٌّ بَعْدَ مَوْتِي''، غدا العبد ''مُدَبَّرًا''. وأمّا العتق المعلَّق فهو تعليق عتق العبد بأمرٍ أو حادثةٍ.

أما دائرةُ العتق لنيل الثواب فواسعة جدًّا، فرغَّبنا الإسلام في العتق وعظَّم ثوابه تعظيمًا يجلُّ عن الوصف، فكانوا في عهود مضت يحرّرون المئات دفعةً واحدةً لوجه الله تعالى، وفي عهود أخرى كانوا يشترون العبيد في الأشهر والأيام المباركة ليعتقوهم لوجه الله تعالى.

قد يقال: مهما بلغت رعاية الرقيق ومعاملتهم الإنسانية، ومهما ساغَ العتق وتحقَّق بل لو أُطلق سراح الأرقّاء جميعًا وتحرروا، فأَنْ تشتمل كتب الفقه على أحكام الرِّق معناه قبولُ الرِّق لا شكَّ ولا ريب؛ ولا أحدَ يشكُّ أنَّ الإسلام -وقد سبق له تحريم واستئصال قبائح متجذرة في النفوس- لا يُعجزه تحريم الرق، أفلا يعد هذا تحقيرًا لشأن الرقيق فهو قادر على تحريم الرق إلا أنَّه لم يفعل؟

ألا فلنعلم بدايةً أن الإسلام ليس هو بواضع نظام الرق ولا هو سبب استمراره ولا هو عليه بحفيظ، بل كان الرق نظامًا قائمًا أفرزته الأمم والدول من خلال الحروب، وما دامت الحروب قائمةً -وهي ستستمر إلى يوم القيامة طالما أن الإنسان لا يغيّر من طبيعته- فالحيلولة دون وقوع الأسر والرق لن يكون بمقدور أمة وحدها أيًّا كانت.

والآن تعالوا نفكر:

افرض أننا خُضْنا حربًا ضد دولة ما، وأسرنا منهم، وأسروا منّا، ففي معاملة هؤلاء الأسرى عدَّة احتمالات:

١- قتلهم جميعًا كما تفعل الأنظمة الظالمة.
٢- الإبقاء عليهم في معسكرات الأسرى.

٣- إطلاق سراحهم ليعودوا إلى أهليهم.

٤- أن يُلحَقوا بالغنائم ويُقسموا بين المسلمين.

والآن تعالوا ندقق في هذه الاحتمالات بالتسلسل:

١- أي ضمير أو وجدان يرضى بقتل جميعهم دون تمييز بين رجال ونساء، وبين شيوخ وأطفال بلا رحمة؟ فرغم مرور عصور وعصور لا تزال مظالم روما للقرطاجيين وصمةَ عارٍ على جبين أهل روما، وما زالت وحشية بختنصر والفراعنة وغدرهم لوحات ظلم محفوظة محفورة في ذاكرة الإنسانية، ولماذا نذهب بعيدًا، فقد رأينا في عصرنا الويلَ والهول في البلقان، وذُبح في روسيا في عهد قريب ثلاثون مليونًا، ومئات الآلاف في ألمانيا النازية، أروني إنسانًا يرتضي شيئًا من هذا.

٢- وحشيةُ معسكرات الأسرى ليست بأقلّ من هذا، وإنها لَتثير الاشمئزاز. فقد شهد القرن العشرون أشنع صور الأسر في تلك المعسكرات وأكثرها ظلمًا ووحشيّة؛ كانت معسكرات بلدان البلقان كافّةً لا سيما معسكر (سَرَايْ إِيجِي) في أدرنه مثالًا للوحشية والشناعة. يشكو الأمريكيون ما عانوا من معسكرات الأسرى اليابانية، ولو رأوا ما جرى في "سراي إيجي" من قطع لأثداء النساء واعتداء على الأعراض، وقتل الرجال صبرًا أي بالجوع حتى الموت حتى اضطروا إلى أكل لحاء الشجر، ولو رأوا أصناف العذاب التي تعرض لها أناس في أذربيجان وروسيا الشيوعية لعرفوا أن ما قاسوه من اليابانيين وما قاساه منهم اليابانيون ليس بشيء؛ فقد شاهدت ومرّت أوروبا وآسيا بأفظع أشكال معسكرات الأسرى في الحرب العالمية الثانية، فانتهاج هذا الأسلوب ليس من الإنصاف ولا الإنسانية في شيء، بل هو وحشية فظيعة.

٣- ربما نحبّذ ردّ الأسرى إلى أوطانهم، فهذا عمل إنساني نبيل؛ ولكن إن كان الآخَر أي العدوّ يقتل أسرانا ولا يردّهم ألا يكون هذا خيانة لمواطنينا؟ وثمة احتمال أن يفشي من أطلقْنا سراحَهم بمعلومات قد تضرُّ بنا وتمهّد الطريق لخِطّة عدوانيّة جديدة ضدّنا؛ وتنهار بها معنويات قواتنا المسلَّحة وتقوّي صفوف العدو وتشجّعه وتساعده على شنّ هجوم أكثرَ عنفًا وضراوة. ويمكن أن نتبادل الأسرى بمعاهدات دوليّة، وكثيرًا ما استعانت الدول قديمًا وحديثًا بهذا الحلّ، وربما مستقبلًا أيضًا، وهو يقضي على قسم من الرّق.

٤- وليس بعد هذه الخيارات سوى توزيع الأسرى على المجاهدين، وهو حلّ مؤقت لمشكلة الأسر، وفضّله الإسلام؛ ولم يَختر القتلَ والإبادة الجماعية للأسرى ولا العنف في معسكرات الاعتقال، ولا تصرّفًا يطمّع الأعداء فينا. بل اختار منهجًا أوفق للطبيعة البشرية.

ففي بيت كلِّ مؤمن فرصةٌ للأسير ليعرف عن كَثَب حقيقةَ الإسلام وجمالَه، فينشرح صدره للإسلام بالمعاملة الإنسانية الطيّبة -حدث هذا في التاريخ آلاف المرات- فإذا أُعتِقَ كان له ما للمسلمين من حقوق، وقد نشأ على هذا النمط آلاف الكاملين الذين عُرِفوا بـ"الموالي"، بدءًا من الإمام نافع شيخ الإمام مالك إلى طاووس بن كيسان ومسروق وغيرهم من أئمة التابعين.

ومع هذا قلنا: إنه حلٌّ مؤقت؛ فهو وإن تكرَّر اللجوء إليه، إلا أنّ الأصل في الإسلام الحرية، لذا فتح نوافذ عدّة تفيد في إنهاء الأَسْر، ولَطالما حضّ على العتق، فالإسلام يعدّ العبوديّة أمرًا عارضًا مؤقتًا. ولكن ما لم تتفق دول العالم على حلّ موحد فالرِّق سيبقى في بلاد أخرى، وما شرعه الإسلام وحده في هذا الصدد سيظلّ مقصورًا على تابعيه،

فقد شرع أحكامه في هذا، وعلى دعاة السلام العالمي القائمين على إرسائه أن يستجيبوا لها فيفتحوا الطريق لتطبيقها؛ فالرِّق من الأمور التي عدّل الإسلام مسارها وقوَّمها، فانتقل به من الحيوانيّة والوحشيّة إلى طريق العدل والخير، وترك ما لا يمكن تحقيقه من طرف واحد إلى تعاون الدول في المستقبل.

شيء آخر هنا، قسمٌ منّا لم ينضجوا دينيًّا بعد، فسقيم القلب قد يبدر منه قصور وإهمال في مسائل فرعية، فربّما وقف هو وأمثاله في صفّ دولٍ تؤيّد بقاء الرق؛ نعم فالدِّين لن يسمو بالناس جميعًا لِزامًا إلى مرتبة الملائكة، فتجد أولئك بيننا، وتجد من يستمسك بمبادئه القدسية ويستعصم بها ليسمو إلى مرتبة الملائكة.

مسألة أخرى: كان من المؤمنين من يملك أرقَّاء أمدًا مديدًا، وكان طريق تحريرهم مفتوحًا على مصراعيه، ربما يبدو هذا تناقضًا بين المأمول والمعمول؟

أجل، فهذا كان منذ العصر الأول، ولكن لهذا سببان مهمّان؛ أحدهما ذو صلة بالسادة، والآخر بالرقيق.

أمَّا الأول فالإسلام كما سبق يَعدّ سمو الإنسان وكماله في الحياة العمليّة رهنًا بحريته وإرادته؛ ومَن فيه نقصٌ يمنعه نقصُه أن يقوم بما يقوم به كاملٌ لا نقص فيه، ومن الطبيعيّ عدم تطبيق هذا الأمر تمامًا حتى ينضج هذا الصنف من الناس بالتربية المحمديّة، وليس من العدل والإنصاف تشويه صورة الإسلام بحُثالة آثروا إشباع غرائزهم البهيمية.

وأمَّا السبب الثاني فمتعلق بالعبيد. إن تطبيق الإسلام المبدع يراعي الطبيعة البشرية، فالمسلمون الأوائل سلكوا أولًا نهج إقناع العبيد بإنسانيتهم، وتأليفِ الحرية إليهم، ثم تحفيزِهم على بناء الأسرة وإلف حياة الأحرار.

الإلف والتعوّد يشكّلان في الإنسان طبيعةً أخرى، ولَضرْبُ السيوف أيسر من ترك المألوف والعودة إلى حالة أصيلة سابقة. نعم، إنّ الرق يغيّر الفطرة الإنسانية، وتستغرق إعادتها إلى حالتها الأولى وقتًا طويلًا، وهذا ما قام به المؤمنون.

فالمؤمن ينادي غلامه "يا أخي"، ويحسن معاملته ويعلّمه العمل الحر والكسب الحرّ، ويشجّعه على تكوين أسرة ورعايتها، ويعوّده القيام بهذه المهامّ، ثم يعتقه ويحرره إذا لم يلحقه ضرر من العتق، أو كان يأمل من عتقه خيرًا.

إن الرقيق الذين ضمرت قابلياتهم الإنسانية فأصبحوا كسمك الزينة في الأحواض أو طيور الزينة في الأقفاص لو انخرطوا في المجتمع قبل أن يمرّوا بهذه المراحل وعارُ الرِّق على جبينهم، لتَحيَّروا أمام القضايا الاجتماعية المتشابكة وتمنَّوا آنذاك أن لو عادوا رقيقًا. لهذا سلك هذا المسلك كثير ممن لم يمارسوا الحياة الحرة في المجتمع ولم يحيطوا علمًا بقوانينها. ولما أمر الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن بتحرير الأرقّاء جميعًا دفعةً واحدةً رغِب معظمهم بالعودة إلى أسيادهم. ولا مفرّ من هذه العاقبة، فمن أمضى عمره أو معظمه عبدًا تعوّد على تلقي الأوامر، بل إنه إن أحسن في بعض الأمور فليس هو بأزيد من آلة وراءها مَن يحرّكها، فهو -وإن بلغ الخمسين- كالطفل يفتقر إلى من يعلّمه شؤون الحياة وقوانينها. ولا ينحصر هذا الدّاء أو العلة بالرقيق، بل نلحظه في شعوب رزحت تحت وطأة الاحتلال سنين طويلة. أجل، فمثل هذه الشعوب إن لم تستردّ شخصيتها ولم تنل ما يلزمها من تدريب وتربية، فلن تستطيع أن تتحرر من ربقة تبعيتها في علاقتها بالدولة المحتلّة وتصفيقها لها في كلّ ما تفعله، بل إن استرداد الشخصية المستقلة لهذه الشعوب أعسر من تعليم العبيد حقيقة إنسانيتهم.

وهكذا بدأ الإسلام العملَ، راح يبعث في أعماق العبد أوَّلًا الشعور بالإنسانية، وحقّق لروحه الممسوخة التوازنَ، وأحيا في قلبه معنى الحرية، ثم أسلمه إلى معترك الحياة. فتربية زيد بن حارثة وعتقُه ثم تزويجه بامرأة نبيلة، ثم تعيينه قائدًا في جيش فيه كثير من الأشراف ليس سوى تحقيق لهدف تقرر تحقيقه تدريجيًّا.

وما بلالٌ الحبشيُّ ﷺ وهو في طليعة الصحابة، وسالمٌ مولى أبي حذيفة ﷺ وقد بلغ مقامًا يغبطه عليه كثير من المسلمين، وسلمانُ الفارسيُّ ﷺ وقد عدَّه الرسول ﷺ من أهل بيته، إلا أمثلة حيّة على منزلة أحرزها الأرقّاء في الإسلام بين المسلمين، ولولا خشية الإطالة لعرضنا مئات الأمثلة.

باختصار: لم يَشرع الإسلام الاسترقاقَ ولم يسنّه، بل عدّله وأشار إلى طُرق استئصاله. ولولا الحروب ثم حضُّ مرضى القلوب وترويجهم للرِّق، لما كان له وجود في التاريخ الإسلامي بهذا الشكل مَثار النقد. نعم، الإسلام وجد الرقَّ في طريقه، فشرع من الأحكام ما يقضي بها عليه، ويقوِّم حالته البائسة، ويرفع عنها الظلم والغدر، ويوجهها نحو الخير والجمال المطلق.

ونختم بالتضرع والدعاء أن يرفع الله عن الشعوب والدول ذلّ العبودية كما رُفِع عن الأفراد بفضل هذا الدِّين.